

الاماني والمنه

﴿ فى حديث قبول ووردجنه ﴾

لمؤلفه الفقير الى ربه المتعال

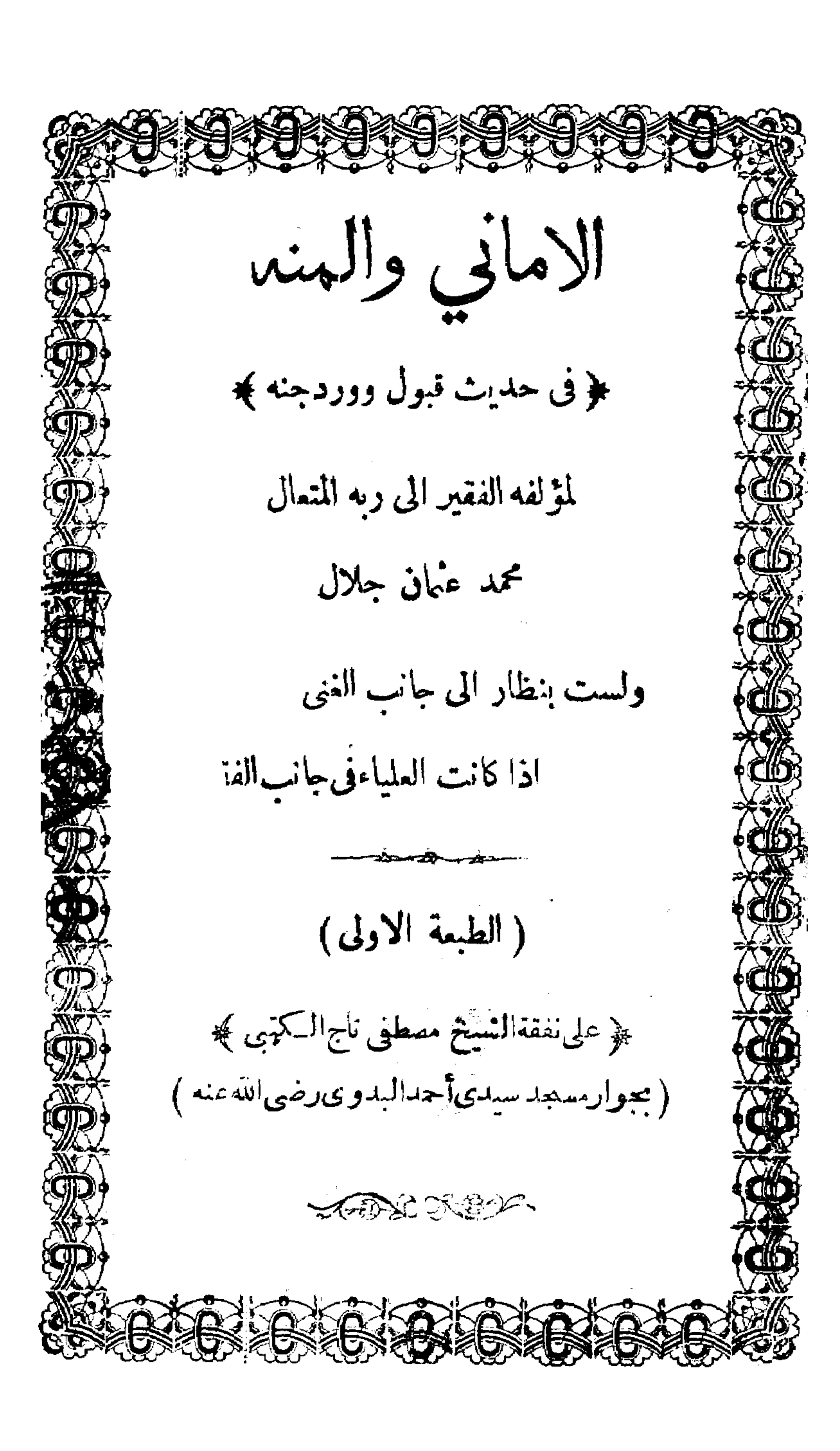
محمد عثمان جلال

ولست بنظار الى جانب الغنى

اذا كانت العلياء فى جانب الفقر

(الطبعة الاولى)

﴿ على نفقة الشيخ مصطفى تاج الكتبى ﴾
(بجوار مسجد سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه)



الاماني والمنه

﴿ فى حديث قبول وورد جنه ﴾

لمؤلفه الفقير الى ربه المتعال

محمد عثمان جلال

ولست بنظار الى جانب الغنى

اذا كانت العلياء فى جانب الفقر

(الطبعة الاولى)

﴿ على نفقة الشيخ مصطفى تاج الكتبى ﴾

(بجوار مسجد سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه)

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن جعل القصص فى كتابه خير تذكره ونشر ذكر من غير تأسيا وتفكره الذى ابتلى عباده الأخيار وأعدلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء لهم على صبرهم وعلوا لشرف قدرهم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد فلما كانت كتب الأدب لازمة للمدارس الأولية لتأليف قلوب التلامذة الابيه وكان أسهلها ما يدخل عليهم بالحكايات والقصص المسليات اخترت كتابا من أشهر ما فى اللغة الفرنساوية وترجمته باللغة العربية وهو فى هذا المعنى قدوه ولمن أراد أن يتأدب أسوه لما احتوى عليه من الحكم والامثال والمعانى التى هى كالسحر الحلال والماء العذب الزلال فأفرغته فى أكواب من الالفاظ المتبلوره واخترت له ماسهل من الكلمات النيره لتكون قطوفه دانيه ومحاسنه عن الزينة غانيه وأخرجته عن الطباع الافرنجية وجعلته على عوائد الامة العربيه وما بدلت غير الاسماء وقرنتها بايلا ئمها من لذيذ المسمى وتركت باقيه على ما فيه شعر

حملت خاتم فيه فص أزرق * من كثرة اللثم الذى لم أحصه

لولا ماعلم العزول فياله * من خاتم نقل الحديث بفصه

فمن تصفحه بعين النقد رأى القد على القد ومن قاسه بمقياس المقابله وطبق آخره بأوله ورأى فذا قرن بتوأم وعلم أن من ترجمه فقد ترجم ثم كتبته على

ورق الجنه وسميته قبول وردجنه لمقار مخرج الاسمين ومطابقته فى لفظ اللغتين وأهديته إلى صاحب السعاده ومعدن العز والسياده الجامع بين السيف والقلم نجل الخديوى الاكرم سعادة أفندينا محمد توفيق باشا لازال سناؤه فى سماء المجد طالعا وبرق ذكائه فى سحاب الادب لامعا ولا برحت أيام الخديوى فى جبهة الدهر غررا ووجوه أنجاله فى عقد الزمان دررا

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حتى تبلغها ألفين آمينا

﴿ فوائد الكتاب ﴾

ان لهذا الكتاب فوائد عديده وطرائق مفيده منها معرفة تخطيط البلدان ووصف الانهار والخلجان ومنها الوقوف على خواص النباتات ومعرفة سائر الخضراوات وتربية القابل منها للتربيه وجعل البعض منها للتنزه والبعض للتغذية ومنها خدمة الاشجار وتأليفها فى سائر الاقطار وغرسها فى أوانها وتمكينها مما يناسبها من مكانها ومنها الاطلاع على سائر الامم واصطلاحات العرب والعجم ولم يخل قط عن الرياضيات وذكر ما يناسب من الطبيعيات وما يستملح من الادبيات ودقيق النكات ورقيق الابيات ما ترك من البديع شيأ الاذكره ولا معمى فى معضل المسائل إلا فسره يعلم الامانة والصدق ويرشد الى العدالة والحق أف من غرامياته ما أعذبها وايه لصباباته فما أطربها يدير أمور العائله ويصون الحر عن المسئله ويبذل النصيحة لمن يهواها ويظهر الفضيلة لمن يريد أن يراها ان مدح الدنيا حببها للقلوب وان ذمها أظهر فيها العيوب أو تكلم على الزهد مالت اليه الغواه وتطابقه الملوك والولاه يضحك ويبكى ويخطب ويحكى ولا يسرد ذلك الا فى سياق القصص ذاكرا لها بحسب المناسبات والفرص يسمعها المريد بشهيه ويقبلها بصفانيه فتهذب أخلاقه وتضيء آفاقه وتورث قلبه الرأفة ونفسه الكرم والعفة فمن قرأه وكمله ونظر فيه وتأمله خرج منه متشوقا اليه وأكثر من الثناء عليه

﴿ قبول وو ردجنه ﴾

قال الناقل لهذا الخبر الصحيح والقول الفصيح بينما أنا في سياحتي على كفي تعبي وراحتي واذا بجزيرة من جزر بحار أفريقيه فنزلت فيها على الجهة الشرقيه فرأيت تحت سفح الجبل من هذا المحل بمينا يقال لها مينا الواس أرضا كانت أفلحت لبعض الناس ورأيت بها أثر عشتين صغيرتين في وسط حوض كائنتين وكان الحوض محاطا ببعض صخرات طوال ولم يكن لذلك الحوض الا فتحة واحدة تميل إلى الشمال ويرى على العشتين جبل يسمى بالخرطوم متى وردت مركب الى الجزيرة رفعوا لها الاشارة علامة على القدوم وكان في سفح الجبل على منحدره مدينة يقال لها مينا لوى بوادي عبدوس ثم مسجد الابنوسى وكان هذا المسجد موضوعا في مكان مرتفع من الصخرى يراه القادم مشرفا بما حوله من المماشي اخضرا وعلى البعد منه أجمة كبيرة ممتدة إلى أطراف الجزيرة ثم على شاطئ البحر جون يسمى بالدفين وعلى يساره رأس يسمى رأس المسكين ويرى الرائي بعد ذلك حركة البحر وسكونه وكثيرا من الجزر الغير مسكونه ويرى سطح الجزر مساويا لسطح الماء ثم رأس المترمرتفعا الى عنان السماء فاذا دخل أحد في فتحة الحوض نظر أشياء عجيبه وسمع أصداء الجبل تعكس دوى الرياح الواقعة على الغابات القريبه أو سمع البحر وتلاطمه والموج وتصادمه وان كان تحت سفح العشتين فلا يرى الا صخورا كالاسوار طالعة في أصولها وخلالها الاشجار من علوها يتقطع السحاب عليها فتتساقط الامطار بين يديها فتشير بالفرح وتنصب أعلام قوس قزح ثم تجتمع المياه في كل غدير وتكون منبعا لنهر يسمى بالتنوير ومن نظر الى محيط تلك البقعة شهد اللطف في الهواء والصفاء في الماء والرقة في الاضواء فما يكاد يسمع صوتا للنخيل الطالع على الهضبات ولا ينظر غير سهام سعفه الراقصات وان كان اليوم صاحيا صار ضوءه ببطن الحوض ضاحيا غير ان الشمس لا تصل أشعتها

اليه إلا وقت الزوال وعند ظهورها لا تشرق إلا على رؤس الجبال فتكون كالذهب على حوشي الارجوان أو كالتاج على رأس السلطان

قال وكنت أحب أن أحضر في هذا المكان وأتفسح في تلك الوديان لأتمتع بالمنظر العجيب وأذواق لذة انفرادي بهذا الشيء الغريب وبينا أنا جالس ذات يوم بالقرب من هاتين العشتين أنظر في رسومهما وأتفكر في أمورهما واذا بشيخ مربي وحف بجانبي وكان على عادة أهل بلده لابسا قباء صغيرا وسروالا كبيرا خالعا نعليه ماسكا عصا بين يديه ماشيا مع الانكسار عليه ظاهر الحشمة والوقار فسلمت عليه فرد على السلام وخصني بالتحية والاكرام ثم أمعن في النظر ودنا مني وجلس على الأرض غير بعيد عني فلما استأنست منه غاية الاستئناس وعرفت انه من خيار الناس فقلت له يا أبتي أتدري بخبر هذه الأماكن وكيف كان حال تلك المساكن فقال يا ولدي ان هذه الرسوم وهذه الأطيان كانت معمورة من قديم الزمان وكان بها عائلتان غفل الدهر عنهما زمنا فذاقتا كؤوس الهناء ولهما قصة تأخذ بمجامع القلوب وتعطي هدية من المحب الى المحبوب لكنا هنا في أرض منقطعة خلف بحار متسعة ومن ذا يسأل عن قصة أناس مجهولين وعن مورد الامم المبعدين ألم تعلم ان الناس لا تسأل الا عن قصص الملوك الأكاسره وسير الرجال الجبابرة على انها لا تفيد الا القسوة ولا تصلح إلا أن تكون للمروءة أسوة فقلت له وحق من يعلم ما في الصدور انك لخبير بالامور فان كنت تدري بما سألتك عنه فبالله عليك إلا ما مكنتني منه فان الرجل وان أعماه الجهل وأصماه المال والأهل لا يزال يرتاح لقصص الصالحين وخبر ما جرى للشهداء والمتقين فلما رأى مني الالحاح وكثرة الطلب عن الافصاح استجمع قريحته وحصر فكرته وقال في الحال بلا تأني دونك خذها يا ابن الكرام عني كان رجل من أهالي الجزائر واسمه الحاج عبد القادر مكث مدة يتطلب الخدم في بلده فلم يتحصل على قصده وآل أمره إلى أن

أتى هذه الجزيرة بعد كثير من التعب والحيرة وكانت معه شابة تحبه ويحبها وتطلب قربه ويطلب قربها وكان قد تزوجها بالخيفة عن أهلها لأنه كان فقيرا وأهلها أغنياء وأنت تعلم ان أغلب الأغنياء أغبياء فلما أتى بها إلى هنا تركها وسافر بقصد التجارة ليدخر ادخاره ويرجع مع جم من العبيد ويفلح بهم قطعة من أرض هذا البريد وكان سفره إلى جزيرة مدغشقر ليشترى منها بعضا من السودان ثم يرجع هنا للاستيطان فحين نزل بها أصابته المنية ولم يبلغ الأمنية ولقد تصرفت موجوداته بعد موته كما ينصرف كلام المرء بعد نفاد صوته وبقيت امرأته فى هذه الجزيرة حبلا لا تملك مالا ولا أهلا ولا هى تبتغى الأزواج غير زوجها الذى كانت تحبه وكان يحبها فتوجهت مع جاريتها للزراعة بقصد المعيشة لا التجارة ولا البضاعة ولا تختر فى هذه البقعة محلا خصبا ولا مكانا مستويا رحبا لتكون قريبة من نقط التجار بل مالت إلى العزلة والاقتصار فلزمت فوهة الجبل واتخذت هناك أبعد محل لتعيش بعيدة وحيدة غنية بالعزلة سعيده كالطير يعزل عشه مخفيا ليكون نسيا منسيا وهذه سجية وغريزه فى ذوى النفوس العزيزة يألفون الأماكن المقتصرة ولو كانت موحشة مقفره كأنهم يرون فى العزلة حصونا تدرأ عنهم صروف الزمان وتكلؤهم من تقلب الحدثان وكأن هدأ الطبيعة يسكن جأشهم ويؤنس استيحاشهم

ولقد سخر الله لها حبيبة من جنسها وقريبة من غير أهلها وكذلك من رضى من الدنيا باليسير فقد هان عليه العسير ولقد عز من قنع وذل من طمع وذلك انه كان فى هذا المحل امرأة من الطيبات وست من المخدرات ولدت فى الغرب من عائلة من فقراء الفلاحين وكان يحبها شاب من ضباط الملاحين فأوعدها أن يتزوج بها ولما قضى وطرا منها تركها ولم يسأل عنها فعزمت على الخروج من بلدها مع عبدها وولدها وتركت أهلها ودارها وذهبت إلى بعيد البلاد توارى عارها فأتت لتلك الجزيرة واستخدمت فى الزراعة عبدها مرجان وكان

اسم ابنها قبول واسمها أقحون

ولنرجع إلى الست بدور فانها مشت ومريم جاريتها وراها وسلمت قيادها لمن أنشأها وبراها وأتت الى هذا المكان فوجدت فيه أقحوان فحصل لها مزيد الفرح وزال عنها الهم والترح سيما وقد قابلتها بابتسام وأكرمتها غاية الاكرام فكانتا يتحدثان بما أصابهما ويحكيان لبعض ماجرى لهما ثم أشارت لها أقحوان الى عشتها هي تبكى وتقول هي لى ولك فلما رأت منها هذا الاكرام ضمتها وبين عينيها قبلتها وقالت لها ان الله تعالى أراد لنا بالسعادة وكتب لنا الحسنى وزياده حيث ألهمك باكرام مثواى والتكرم علىّ بمأواى فلقد رأيت منك مالم أره من الأقارب وان كنت بالنسبة لى من الأجانب قال وكان لى معرفة بأقحوان منذ جاءت بهذا المكان وكانت لى على بعد الدار بمنزلة الجار مع أنه فى المدن يكون الرجل مجاورا لأهله وأقاربه ويكون جانبهم بجانبه وهم عنه لايسألون وعليه لايصبحون ولايمسون وذلك بخلاف سكان الضواحى وأهل القبائل فى سائر النواحى فانهم على بعد دارهم وشطاط مزارهم يتوددون لبعضهم بالعياده ويسعون بينهم بالاعانة والافاده سيما لما أخذت التجاره تجمع بين الهنود وسكان هذه الجزيره صار الجار له على جاره حق الجيره

ولما أن بلغنى أن جارتى أتتها رفيقه وانها فى غاية من الاحتياج والضيقة أتيت اليها من باب المطايبه وعلى سبيل المواساة والتعله فلما وقع بصرى عليها توسمت الخير بين عينيها الا أن الحزن كان عليها ظاهرا لمن يرى وكانت مشرفة على الوضع وصارت تحتاج للمساعدة بالطبع فأشرت عليهما حبا فى منفعتها واعانة لأولادهما من بعدهما أن يقتسما الحوض ويزرعانه أولى من تركه وهجرانه كى لايأتى أحد الاجانب فيمتلك عليه ويجلب قومه اليه فوكلانى بالقسمة فقسمته بعد ان ضبطت قياسه وأحكمته وجعلت قسما يبتدأ من الصخرة ذات السحاب المنهمر والماء المنفجر ممتدا إلى الفتحة العليا من الهضبة محتويا على عيون ومجار

عذبه وجعلت القسم الثانى فى الجزء الأسفل يبتدأ من النهر الذى منبعه فى القسم الأول ويمتد إلى الفسحة التى نحن عليها الآن ثم تصب فى البحر كبقية الغدران وهو كثيرى موشى بدروب من المراعى الظريفة محتوى على قطعة أرض لطيفة الا انها لم تكن أحسن من الأولى لأنها فى زمن الامطار تكون مأوى للمياه الراكده فاذا جاء الصيف يبست وصارت جامده وبحيث لو لزم الأمر لقطع مجرى للزم استعمال البلط الحادة والآلات الأخرى وبعد أن فرغت من القسمة قلت لهما لا تخصيص إلا بالمساهمة لعدم وقوع نزاع أو مخاصمة فوقع للست بدور سهمها على القسم الأعلى وأخذت أقحوان القسم الأدنى ورضيت كل منهما بأرضها وما قسم الحظ لها الا انهما أوصيانى أن لا أقسم بينهما السكن قصدا بأن يأتنسا ببعضهما وان يتعاونا فى العمل على قضاء حوائجهما لكن لزم لكل عشة منفصله وان كانت فى الوضع بالأخرى متصلة وكانت عشة أقحوان على حدود أرضها فبنيت للست بدور بيتا يقرب منه فى طينها بأن قطعت أخشابه من الجبل وجلبت خوص البحر على عجل ونصبت قوائمه ورفعت دعائمه فجاء بعون الله فسيحا وسكنا مليحا ثم أصلحت بيت أقحوان وهندمته وأحكمته وأتممته فانظر كيف فعل الدهر بهما فلم يبق منهما غير رسومهما

شعر

وكأنه لم يبق رسم ديارهم * الا ليذكرنى بأيام مضت
كانت لياليها قصارا بالهنا * فقضى عليها الدهر حكما فانقضت

ومثله

ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام

ثم ما تم بناء العشتين الا وجاء الست بدور المخاض فوضعت وأسفر نفاسها عن بنت كالشمس اذا طلعت فدعتنى أن أعوذها وأرقيها وبأشأت أسميها وكنت سميت ابن أقحوان قبول فقالت لى أقحوان اما أن تقول واما أنا أقول

فقلت لها قولى بالنيابة عنى وبشاشتك فسمى فسمتها وردجنه ودعت لها بالمنى والمنه وقالت جعلها الله من أحسن البنات وأطيب النساء المخدرات فانى ماساء بختى الالما فرطت فى عرضى ثم ماتم نفاسها وذهب عنها بأسها الا وكان قدتم اصلاح المسكنين وحسن نظام هاتين العشتين وكان تمامهما على يدى فانى بذلت مع مرجان فيهما غاية جهدى وكان مرجان عبد أقحوان فى السن متقدما صحيح البنية سالما خبيرا بالامور عليما صبورا على العمل مديما يفلح كلما رآه من القسمين قابلا للزراعة لينتفع بما يرى فى البقع انتفاعه فكان يبذر فى كل بقعة ما يوافقها ويضع فى كل طينة ما يوافقها كالذرة والدخن فى القطع المتوسطة الخصوبة وكالقمح فى الجهات الكثيرة اللدوبه وكالارز فى محلات الماء والرطوبه وان رأى سهولة تحت الاحجار يزرع فيها طائفة القرع والخيار فانه كان يكسوها بأوراقه ويضىء عليها بنواره واشراقه وكان يزرع البطاطس فى الطين اليابس والقصبات السكريه فى الاراضى القويه ويزرع البن على الاكم العاليه فاستغل منه الحبوب الغاليه وغرس الموز حول العشتين فكان ينتفع منه بشيئين أكله المتراكم وظله الدايم ثم زرع الدخان فى أوقاته قصدا بتسليته وتسلية ساداته وكان يذهب إلى الجبل فيأتى بخشب الحريق ويكسر الاحجار ليساوى بها الطريق وكل ذلك كان يفعله بالمعرفة والهمة لانه كان خالص القلب فى الخدمه وكان لايخرج عن طاعة ستة أقحوان فى أى زمان وأى مكان ولما وضعت الست بدور زوجته بجاريتها فصار يحبها كستة ويجهد فى خدمتها وكان يحب زوجته مريم حبا جما ويلم لها المنافع لما وكانت مريم قد ولدت فى جزيرة مدغشقر الكائنة فى البحر المحيط الاكبر وكانت عند أهلها دخيره فعلموها صنائع كثيره منها صناعة الاسبات وعمل المقاطف والمشنات فكانت تذهب للغابة فى كل يوم وتأتى بعيدان الخيزران وخوص الدوم وتصنع ما بدا لها من تلك الاصناف وتتحفها غاية

الاتحاف وكانت ماهرة نظيفه سريعة فى الخدمة خفيفه تقوم بتحضير الطعام وتربية الدجاج والحمام وكلما رأت شيأ يزيد عن المؤنه كانت تذهب به إلى المدينة فتبيعه مع الامانه وتعطى ساداتها أثمانه وبالجملة فقد ذكرت لك عدد هاتين العائلتين ثم أزيدك كلبا ومعزاتين لتكون ممن علم بالحال وكفى الله المؤمنين القتال وأما الصاحبتان الست بدور وأقحوان فكانتا يغزلان القطن فى اليوم والليله ويصرفان ثمنه فى لوازم العيله وكانتا لا يملكان من اللوازم الاضرورى الحطام حتى انهما كانتا يمشيان فى بيوتهما حفاة الاقدام وكانتا لا ينتعلان إلا يوم الموسم والزينة أو عند احتياج دخولهما الى المدينة وكانتا لا يدخلان المدينة إلا فيما ندر ولا لوم على من اعتذر اذ كان ذلك خوفا من أن يزدرى أحدهما على حقارة ملبوسهما لانه كان من القماش الازرق العتيق الذى هو عادة من ملبوس الرقيق ولئن كان حظهما من الناس الاحتقار وعدم الاعتنا والاعتبار فكانتا عند العودة الى مساكنهما يريان فيهما ما يسرهما وذلك ان مرجان ومريم اذا نظراهما على البعد مقبلين أسرعا للقائهما على الرأس والعين واذا دخلا العشتين رأياهما نظيفتين مرتبتين ونظرا فيهما خيرا كثيرا من ثمرة شغلهما ورأيا خادمين محبين لهما

ثم لما اضطرتهما المصيبة صارت احدى المرأتين للاخرى حبيبة فاختلطا سويه واتحدا فى الكلية والجزئية واشتركا فى المنفعة والفائدة والمجالسة على المائده انما اذا هاجهما الفكر فيما مضى وخطر ببالهما ما حكم به القضا غلب عليهما التسليم والرضى وانصرفا من الحالة الماضيه الى العيشة الراهنة الراضيه كاللهب اذا لم يجد فى الارض وقودا صعد الى الجو صعودا

وكلما نظر الاولادهما اللذين هما ثمرة فؤادهما والسبب فى سوء حظهما يزداد كل منهما بالآخر حبا ويأتلفان جسما وقلبا فكانتا يتلذذان بغسلهما معا ويشركانهما فى المهد مضجعا وطالما تبادلا فى الرضاعة بالالبان وتناوبا لهما

بمضغ الطعام بالأسنان حتى كانت الست بدور تقول لصاحبتها يا أختي كل منا له ولدان وكل من أولادنا له أمان وكان مثل الولدين على يتمهما حين كانا يتبادلان ألبان أمهاتهما كشجرة فيها فرعان نبتت عليهما ثمرتان ان قطعت ثمرة من فرع وأثبتها في الآخر على وجه التطعيم أمسكه بتقدير العزيز العليم هذا ولقد تحدث أمهاتهما بزواجهما وهما في المهد صبايا حفايا عرايا وكان الحديث بزواجهما لمجرد التسليه ومن باب التفاؤل بوقوع الأمنيه ولمناسبة ذكر الزواج كانت تبكى أقحوان لما فرطت في عقده والاخرى تبكى على ان الزواج جاءتها المصيبة من بعده وعلى أن أحدهما ابتغت زوجا أعلى منها قدرا والاخرى لأن زوجها كان دونها نسبا ووفرا وكانتا مع ذلك يتركان الهم بالنسيان وبأولادهما يتسليان فيقولان في غد تصير أولادنا أسعد منا حظا وأحسن منا معنى ولفظا اذ يجمعان بين لذة الألفة واستواء المقام بعيدين عن وحوش متمدنى هذه الأيام الذين يفرقون بين الألفين لتفاوتهما في المقدار واختلاف النسبة والدار وفي الواقع اذا نظرنا للائتلاف الواقع بين هذين الطفلين تعجبنا غاية العجب وأخذتنا فيهما الحنانة والطرب اذ أن قبول اذا بكى أو من شيء اشتكى قربوا منه وردجنه ابتسم وانطلق وجهه وتقسم وكذلك هى ان تألمت من شيء مجهول كان يستدل عليه ببكاء قبول فصارت من لطفها تكتم ما أصابها وتجلد على ما نابها كى لا يتألم لالمها ولا يتوجع من ضرمها وما جئت مرة هنا الا وأراهما معا يمشيان ويتساندان بالايدى والاحضان كأنهما الفرقدان أو السما كان ور بما دخل الليل وهما في المهد على اعتناق الخد على الخد والساق على الساق وكان مبدؤ نطقهما وأول كلمة قالاها لبعضهما كلمة أخى وأختى لا سيدى وستى وهاتان الكلمتان أحلا ما تنطق به الاطفال وألذ ما تتحدث به النساء والرجال فانهما دفتا كتاب الشفقة وعينا رأس الرقة وكانت تربيتهما معا داعيا لازدياد المحبة بينهما والسعى في قضاء حوائجهما وما أسرع ما اشتدا والى الخدمة

استعدا فاختصت وردجنه بخدمة العشة ونظافتها والقيام بفرائض العيلة من جهة طعامها وكلما رآها أخوها على هذه الحالة قام يشكرها وقبلها فى نغرها وأما قبول فكان طورا مع مرجان فى اصلاح البستان وطورا يذهب معه الى الغابة فى غاية القوة والصلابة فان رأى فى طريقه زهرة لطيفة أو عش طير على شجرة منيفة صعد عليها بهمته وأتى به لاخته عند عودته ومتى رأيت أحدهما فاعلم أن الآخر بجنبه أو منفصلا عنه بقربه حتى أنى ذات يوم كنت نازلا من أعلى الجبل فرأيت وردجنه مقبلة من جهة البستان على عجل ساترة بذيل ثوبها رأسها موارية من المطر نفسها فظننت على البعد انها وحدها فجئت لاساعدها فرأيتها ممسكة بذراع قبول وهو ملتف معها تحت الثوب المبلول وأخذا يجريان ويشتدان ومن الشمسية التى اخترعاها يضحكان كأنهما عروسان فى زفة أو لؤلؤتان فى صدفة وكان جل اجتهادهما فى ارضاء خواطر بعضهما والمعاونة على قضاء حوائجهما ولم يتعلما الكتابة ولا القراءة بل نشأ على السادجية والبراءة فلا يتفكران فى أزمان مضت ولا ليال انقضت بل قام بعقولهما الصغيرة أن الدنيا قد انحصرت فى هذه الجزيرة وأن لا لذة فوق لذاتهما ولا شاغل لهما الا حب امهاتهما

شعر

ولم تسل قط لهم دموع * على علوم ما بها منفوع
ولم يقطب وجههم مؤدب * أو واعظ معنف معذب
وقط ما احتاجا النصح ناصح * ولا لقول قادح أو مادح
فان من دأبه الامانة * مثلهما لا يقبل الخيانة
ومن يكن فى أكله بسيطا * مثلهما لا يعرف التخليطا
ومن يكن الصدق له غريزه * ونفسه شريفة عزيزة
فانه مفقه مهذب * لم يخطر الزور به والكذب

ومن أطاع والديه حقا * فعنه لايقال هـذا عقا

وهكذا على ذا اللطف تربيا وزمن الطفولية قضيا كاليوم الجميـل يعرف من فلقه والدرع الاصيل يظهر من حلقه ثم استمر على تلك الموافقه حتى دخـلا سن المراهقه فانهمكافي الخدميله في اليوم والليـله فتى أنار الصبح جبين السماء صحت وردجنه وذهبت لجلب الماء ثم تدخل البيت وتصلح مافى القدور وتأخذ منهاما يكفى للفطور وفى الشروق تأتى أقحوان مع ابنها عند الست بدور فيتوضؤن هنالك ويصلون ثم بعد ذلك يفطرون وكان فطورهم أغلب الايام أمام الباب تحت ظل الموز والبلاب متخذين من المروج فروشا ومن أغصان الشجر عروشا سيما شجر الموز الغنى ذى الثمر الهنى يتخـذون أوراقه صحافا وكيزانه أكلا واتحافا وعلم من هـذا الغذاء البسيط الخالى عن الثقلة والتخليط حتى تـكونت أجسام هـذين الولدين وتحلت أرواحهما بكل حسن زين فما بلغت وردجنه اثنتاعشرة سنة الاوأفرغت فى قالب ماأحسنه لاأقول برزت فى شكل البنات بل فى قيافة الستات ولاأقـدر أصفها فى لفظ قصير أحسن مما حكاه جرير

شعر

لها بشر مثـل الحرير ومنطق * رخيم الحواشى لاهراء ولانذر

وعينان قال الله كونا فـكانتا * فعولان بالالباب ماتفعل الخمر

اذا تـكلمت تبسمت ورنت بانفها وترنمت لها شعور كالليـل الحالك ومغازلة عيون تودى بعقل الناسك وشفاه حمر كالمرجان ووجـه أبيض ماؤه يروى الظمآن وان سكتت تفـكرت ونظرت إلى السماء وتحيرت فيظهر عليها علامة الذكاء والتذكار وانها صاحبة أفـكار وأماقبول فانه تشـكل بأطرف أشـكال المراهقة للغلمان وأفرغ فى قالب من أجمل قوالب الانسان وظهرت عليه قيافة الرجال فـكان أطول من وردجنة فى القد والاعتدال وكان أسمر منها لونا

وأشم منها عرنينا ولولا أهدابه المسترسله وأسهمها المقتلة لعدمن أهل الحماسة وأولى العزم والسياسة وكان مع اتصافه بالحركة اذا رأى وردجنه سكن وأقبل عليها وبجانبها ارتكن واذا أكلا معا بقيا صامتين وينظران لبعضهما مبهتين

شعر

كأنهما تصويرتان على لوح * أوانهما طيران حلا على دوح
أوانهما أصنام نوبه أفرغا * على قالب حازالجمال بلا روح
أوانهما نجمان زادا تطلعا * لبعضهما خوف الفراق من الصبح

وفى وصفهما شعر

والفان طول الدهر لم يتفرقا * كأنهما جسمان والروح واحده
بنظرة عين وابتسام تراهما * يدبان فى المعنى على كل فائده

ثم ان الست بدور لما رأت ان بنتها كبرت وفى ديوان النساء ظهرت همها أمرها واشتغل بها فكرها فكانت دائما تتوجع لى منها وفى كل وقت تكلمني عنها وتقول اذا مت ماذا يكون حالها بعدى ولم يكن عندها من حطام الدنيا شئ ولا عندي وكانت لها خالة من بنات الأكابر من أغنياء أهل الجزائر غيرانها عجوز شهر به بخيلة مترهبه وكانت أبت أن تساعدها بشئ من مالها لانها تزوجت بشاب ليس من رجالها ولما أن رأت الست بدور قسوتها صدتها وهجرتها وعزمت على أن لا تسألها فى شئ أبدا ولو انها مدت من الفقر يدا لكنها لما صارت أم ولد ولم يكن لها غيرها أحد هان عليها السؤال فكتبت اليها فى الحال فقالت أما بعد فهذى رسالتى إلى سيدتى وخالتى وانى الآن فى جزيرة دوفراس أشقى بلاد الناس وقد مات بعلى وعدمت بعدك أهلى ولى ابنة بلغت رشدها وطاب نهدها وحالى صار يرثى اليه ولم أجد غيرك من أعول عليه فارحمى البعيد لبعده والمسكين لغلبه وعدمه وأحسنى بعد حرمان عشر سنين ان رحمة الله قريب من المحسنين

قال فمكث هذا الكتاب مدة لم يظهر له أثر ولم يأت عنه خبر فأرسلت خطابا ثانيه فمكث مكان الأول حتى انقضى العام وتحول فعززت بثالث خطاب فلم يرد عنه جواب ثم لما مضى لذلك نحو من سنتين وردحا كم لهذه الجزيرة يقال له أبو ردين فبلغ الست بدور انه ورد لها معه خطاب من عند خالتها فأيقنت باصلاح حالتها وأسرعت إلى المدينة ولم تعبأ برثاثة ملبوسها وقلة فلوسها ودخلت عليه فسلما الكتاب فأخذته باستحباب وفضت ختامه وقرأت كلامه فاذا به بلغني كتابك الشنيع ولفظه الفظيع المريع فسرني ماأنت عليه من سوء الحال والاحتياج إلى السؤال وهذا لاشك جزاؤك على فعلك فأهنيك على موت بعلك فانه كان من رعاع المجرمين وأرذل الفاسقين وان انقطاعك فى هذه الجزيرة خير لك وأحسن من أن تظهرى بالخزى بين أهلك فان هذه الجزيرة تغنى المرء على عجل ان لم يكن مثلك من أهل الكسل ثم ختمت خطابها بمدحها فى نفسها وانها ماترهبت الا لاجتناب عواقب الزواج المؤدية إلى الحق واللجاج مع انها مامنعها فى الحقيقة عن ذلك ولاأحرمها مما هنالك الا انها لم تعثر بأحد من الامراء ولم يخطبها على مالها بعض الوزراء وذلك لقبح خلقها وسوء خلقها

ثم لم يكفها ماذكرت وما اقترحت من الكيد وابتكرت حتى وشت للحاكم فى حقها وخاضت له فى عرضها فأول مادخلت عليه ووقفت بين يديه نظر اليها شزرا وأوسعها نهرا وزجرا وقابلها بالاستكبار وكلمها مع غاية الاحتقار مع انه مانظر اليها أحد إلا رق لها وبالبر والاحسان قابلها فكانت كلما أفصحت لهذا الحاكم عن حالتها وذكرت له أمر ابنتها أجابها بأطراف الكلام كقوله سأرى سنرى والسلام ثم صار يبا كتها بالخروج عن طاعة خالتها وخطأها وذنبها وبمثل تلك الأقوال عنفها وعذبها

فرجعت إلى بيتها وهى فى غاية الهم والكدر والألم والضجر ورمت بالخطاب

على مرتبتها ثم قالت بعد لصاحبتها لقد تمت الذلة والمسكنة اذ هذا جزاء صبر احدى عشرة سنة ثم أخذت الكتاب وكلهم عندها حاضرون وقرأته ثانيا وهم لها سامعون فلما خاضت من قراءته وتخلصت من أليم عبارته قالت لها أفحوان ما السبب لهذه الرذالة ومن أحوجنا لتلك الحالة أليس لنا رب يكفينا يطعمنا ثم يسقينا واذا مرضنا فهو يشفينا سبحانه لم نجد إلاه غيره رزقنا وأسبل علينا خيره فعلى م التأسف والحزن والمقت فى البدن انك لمن الجاهلين وان الله مع الصابرين فبكت الست بدور بكاء شديدا وأكثرت نواحا وعديدا فضمتها أقحوان إلى صدرها وجعلت تتلطف بها وتسكن غيظها وهمها وتزيل ألمها ثم خنقها البكاء فبكت معها وأرسلت عليها أدمعها فأقبلت عليهما وردجنة تبكى وتقبل أيديهما وتشتكى ثم جاء قبول يصرخ ويعرك يديه ويرى بشرر الغيظ من عينيه وهو يتمرمر ويتألم من هذا الخطب الذى ألم فلما أحس مرجان ومريم بتلك الرجه وسمعا هذه الضجه أقبلا يتضرعان اليهما ويتوقعان على أرجلهما حتى أسكنا ماقام بهما فقامت الست بدور الى قبول ووردجنه وأسكتهما والى صدرها ضمتهما وقالت أنتما سبب همى وغمى واحتياجى إلى خالى وعمى لكنكما الآن أنسى وسرورى ومناى وحبورى فياليتنى من هنا ما خرجت ولم أكن لفرس السؤال أسرجت فمن الخارج أتتنى المضره وأما هنا فحولى الهنا والمسره فلم يفهما ماقالت ولا أدركا ما اليه أشارت بل لما طابت نفسها وابتسمت وانشرح صدرها وتكلمت أخذا يداعبانها ويسليانها ويلاعبانها ورجع الكل لما كانوا عليه من الهنا مذ زال الهم والعنا وكانها لم تكن الا عاصفة هاجت وخشعت أو سحابة ظهرت ثم تقشعت * ولقد ازداد قبول ووردجنه فى الجسم ظرفا وفى الروح رقة ولطفا وكما حسن الله خلقهما فقد حسن خلقهما فاتفق ذات يوم أن خرجت أمهاتهما لبعض الزيارات والمطلة إلى فقراء الجارات واذا بجارية أقبلت تستظل تحت

الموز ونرجو النجاة والفوز رثة الثياب حافية الاعقاب فلما ان رأت وردجنة ترامت على قدميها ووقفت تتذلل بين يديها وتقول لها ستى ارحميني وبعين العناية انظريني فاني جارية أسيره وخادمة فقيرة حقيره هربت من سيدى وعذابه وماصدقت أن خرجت من بابه ولى مسيرة شهر وأنا أمشى فى الجبال حتى ذقت الويل والوبال ويئست من الرجوع وعدمت النوم والهجوع وهلكت من العطش والجوع وها أثر الضرب على جسدى وعلامة القيد فى رجلى والوثاق فى يدى وكنت عزمت على أن ألقى بنفسى فى البحر أو أغرق فى تيار النهر ومامنعنى الا بعض الامل وأن أرى خيرا من سكان هذا الجبل قال فلما نظرت وردجنة حالها وسمعت ماجرى لها أخذتها فيها الشفقة والمروه وتحركت فيها النخوة والفتوة وقدمت لها طعام العيله ولم يكن عندها غيره لهذه الليله وقالت لها كلى واشربى وطيبى واطربى فحاشا يضام نزيل الكرام ولما أن علمت أنها شبعت وبالراحة تمتعت قالت لها يامسكينه انى ريد أن أتبعك وأذهب الى سيدك معك وأسئله العفو عنك وهو اذا أراك فى هذه الحاله يشفق منك لامحاله أتريدين اليه أن ترجعى وأن تكونى معى

شعر

قالت لها ورائك وراكى * وحق من بصنعه براكى

قد سلط الله على العين العمى * ان لم تكن بنورها تراكى

قال فنادت وردجنه أخاها قبول وقالت له ماذا تقول أتريد أن نذهب معنا وهذه الجارية تتبعنا حتى نوصلها لمالكها ونطلب منه العفو عنها فقال

شعر

مرينى بما شئت أن تأمرى * ولو بالقيام الى قيصر

فعلك اذا اتسع الخطب ذرعا * تجمع كالختم فى خنصرى

قال فساروا والجارية أمامهما تقودهما وتمشى بهما يقطعان الغابات ويخترقان

ما انطبق من المفازات وكلما القيا جبلا عليه تسلقا أو صخرة بها تعلقا حتى وصلا فى الظهيره الى بيت حوله مزروعات كثيره وفيه جم غفير من اليسرى وعدد كثير من الاسافل والامرا مشتغلين بحراثة الارض وفلاحتها وبذرها على بعد مساحتها وبينهم رجل يابس الجسم عظيم الجرم طويل القامه عليه هيئة الاماره والشهامه غائر العينين أسودهما كث الحاجبين مقرونهما فلما رأته وردجنة عرفته وبالرياسة وسمته فأقبلت عليه وتقدمت هى وأخوها بين يديه وقالت له وهى منه مستغرب ومن هيأته مضطربه بالله عليك الا ما عفوت عن هذه المسكينه فان روحها بين يديك رهينه

فكأن الرجل لما نظر اليهما ورأى حقارة ملبوسهما كاد أن لا يسمع لهما قولا وأن يخرجهما من باب أولى لكنه لما وقع بصره على وردجنه وسمع منها الشمة والغنه انحلت عرى صبره وتصاعدت أبخرة كبره وأقبل عليها كل الاقبال ولان لها قلبه ومال وقال فيم جئتينى وعن أى شئ سألتينى فقالت أسألك عن هذه الجارية عفوا وان تعفو فهو أقرب للتقوى فاقسم بالله انه عفى عنها اكراما لها وحياء منها فأشارت وردجنه الى الجارية أن تقدم على سيدها وأن تمد اليه يدها ثم رجعت بعد ذلك وأخوها معها وهى تمسح من الفرح أدمعها وسارا يقطعان السهل والوعر الى ان اذن عليهما العصر وهما فى كد وتعب وعطش وسغب وما صادفا أن لقيا فى طريقهما شجره فتظللا تحت فروعها المنتشره وجلسا تحتها برهه على وجه الراحة لا على وجه النزهه فقال لها أخوها وهى فى هذه الحاله وقد رأى أنها هالكة لا محاله أليس بالله انا تعبنا وان الجوع والعطش قد أضرابنا فان رأيت أن نرجع الى هذا الرجل ونقابله وفيما تيسر من المأكول نسأله فان لنا يوما بغير افطار وقد كاد أن يمضى النهار فقالت له والله لا يكون ذلك أبدا ولا نسأل فى طعامنا أحدا أما سمعت امى وهى تقول ان سؤال الظالم من الفضول فان من سأل ظالما مطاعا فقد امتطا عمى

وجاعا فقال لها وكيف نفعل امالا ونحن لا نملك جاها ولا مالا ياليتنى فى هذه الغابة أجد ثمرا هنديا أو شجرا لامونيا فنرتوين بعصارته وتنجين من العطش ومرارته فقالت لنا الله تعالى وجل جلالا فانه قريب سميع مجيب وماتم قولها الا وسمعا خرير عين فبادرا اليها ووقعا من شدة الظمأ عليها وشربا من مائها الصافى وعذب رضابها الشافى ثم جعا شيأ من الحشائش يأكلانه فلم يقتنعا ولم يشبعا به فصارا يبحثان عن شئ من الاثمار أو بعض نخيل من ذوات الجمار فرأت وردجنة نخلة صغيره لها رأس كبيره فهم قبول باقتلاعها فاعيته وأنفدت قوته وأتعبته فأخذ يحرقها فلم يجد نارا وكلف نفسه صبرا فما وجد اصطبارا بل تذكران الزنوج اذا أرادت ايقاد النار فى الخشب أخذت عودين يابسين من الحطب وحكتهما معا ففعل ذلك فأولعها ثم جاء بالنار الى جذع النخلة فأوقعها ومن أساسها خلعها وصار يحرق ليفها ويقلم قحوفها حتى وصل الى النخاع وأخرج منه قدر ذراع فأكلا منه وطابت نفسهما ونعم بالهما وانبسطا من تلك النعم السارة ومن الجميل الذى صنعاه مع الجارية الفاره الا انه خطر ببالهما ان أمهما فى انتظارهما فندما وتأسفا وأسبلا دمعهما وكفكفا وكانت وردجنة تذكر لهف الامهات وتنشد هذه الابيات

يا ويح قلبى على نساء * قد لقبوهم بالامهات
يحملن طول الزمان هما * على البنينا أو البنات
وكل خير لهن ماض * وكل ضير لهن آتى
ما ثم حظ لهن الا * بدله الله بالمهات

فقال لها قبول وقد أحسن أن يقول

وحق حبى لك يا أختاه * وما اعترى قلبى وما أتاه
لترين اليوم أمهاتنا * ولنبيتن معا فى بيتنا

ثم شرعا يمشيان فتاها عن الطريق وعدما الرفيق فقال قبول لوردجنة

لاتخافى من شئ أبدا ولا تحملى هما ولا نكدا فأنا أعرف ان بيتنا جهة الشمال لا يبعد عن ميل الشمس وقت الزوال فامشى بنا على عجل الى هذا الجبل وكان يسمى بجبل الثلاثة أبزاز لامتيازه بهم كل الامتياز ثم نزلا على منحدر النهر الاسود وأشرفا على أرض فدفد فاتفق أن تعرض لهما نهر عريض فى ممرهما وكان شديد التيار كثير الميل والانحدار واقعا فى أكبر أجزاء الجزيره قاطعا فى سيره لصخرات كثيره فانزعجت وردجنة من غليانه وشدة هديره وفورانه وما أمكنها أن تمر منه وأعرضت كل الاعراض عنه فحملها قبول على عاتقه وتحفظ عليها برافقه وصار يخطى بها زلق الاحجار مقتحما لشديد الاخطار وهو يقول لها لاتخافى فانى أحسست بالقوة وأنت على أكتافى فوالله لوان صاحب الجارية الهاربه لم يمكنك مما كنت له طالبه لنهرته وشتمته وعلى وجهه لطمته فقالت له كيف ذلك وهو أكبر منك وقوى عنك فويلى أنا التى أتعبتك والى الشر عرضتك وقربتك وما أصعب فعل الخير وأثقله وأعرضه على الناس وأطوله وهكذا بمثل هذا الكلام كانت تكلمه وترشده للطرق وتعلمه حتى قطع بها النهر على عجل وأراد أن يصعد بها الجبل الا أن قوته لم تساعده ولم تقو على حملها سواعده فأنزلها على الارض وجلس وهو على آخر نفس فقالت له وردجنه ان النهار قد زال وظل الاشجار قد طال وانى قد أشرفت على الهلاك ولا يمكننى أن أذهب وإياك فاتركنى أنت هنا واذهب وحدك لامهاتنا فتطمئن بك قلوبهم ويأتون معك كلهم فقال أنا لا أتركك أبدا ولست أقصد فى نجاتك غيرى أحدا حتى لو جن علينا الليل ونحن فى تلك الاجمه ومنعتنا من السير الظلمه أوقد من الحطب النار وأحرق نخلة ذات اثمار فنستنير بنارها ونتغذا من ثمارها وأصنع لك بيتا من سعفها وفرشا من ليفها

قال فصرفت النظر عن الرواح والتفتت لما فى رجليها من الجراح وأخذت

تنتعل من ورق الشجر لان قدميها قد أدماهما الحجر وانها الحب الخبير ما افتكرت فى نعلها وما تبصرت فى عواقب فعلها ولما ان قل توجعها وكثر الى الرواح تطلعها قامت تستند على أخيها باليمنى وتتكى على عصا بيدها اليسرى ثم صارا على مهل قاصدين طريق الجبل لكنهما لعلو الاشجار وكثافة أوراقها وكثرة انعكافها وانطباقها ضاع منهما منظر الجبل الذى كان اتخذاه دليلا ثم مالت الشمس للغروب قليلا قليلا فحادا عن الدرب الذى كانا اتبعاه وبقيا فى حيرة من ضل وتاه لم يريا فوقهما غير الشجر ولم ينظرا تحت الا الحصى والحجر فأجلس قبول وردجنه وصار كمن أصيب بجنه يجرى من شجرة الى شجره ويطلع علوة وينزل حفرة يبحث عن الطريق الذى فقده فما استدل عليه وما وجده ثم صعد على شجرة عالية قطوفها غير دانيه فلم ير الا رؤس باقى الاشجار وعليها صبغة الشمس فى أواخر النهار ورأى الريح قد سكنت بعد الهبوب كما يحصل ذلك عادة وقت الغروب وانتشر فى الجو السكوت وأقبلت الحيوانات للبيوت فلم يسمع الا رغاء الغزلان ونعيب الغربان فصاح قبول بأعلا صوته مناديا لعل أن يرى أحدا من الصيادين آتيا ولما لم يأت أحد اليه ولم يرد الاصداء عليه نزل من أعلى الشجرة وقد أعياه التعب وأضناه اليأس والغضب وعزم على المبيت فى هذا المكان وان لم يكن فيه انسان الا أنه لم يجد ماء ولا حطبا ولا نخيلا ولا خشبا فيئس واشتكى وألقى بنفسه على الارض وبكى فقالت له وردجنة لا تبكى ولا تئن ولا تشتكى فأنا السبب فى عذابى وعذابك وما أعترى أمهاتنا من غيابى وغيابك وكان قصدى بذلك فعل الخير لا تكلف المشقة فى السير فما أعظم جهلى وأقل عقلى ثم بكت وتوجعت ورفعت يدها الى السماء وتضرعت وقالت

شعرا

يامن له العزة والدوام * ومن على نبيه السلام

هيء لنا من كل أمر فرجا * وكل هم ومضيق مخرجا

فما تم دعاؤها الا وطارق لباب الفرج يفتح بصوت كلب ينبح فقال قبول ان هذا الكلب من كلاب الصيادين الذين يأتون ليلا فى البساتين ثم ازداد بعد ذلك نبحه وقرب منهما صدحه فقالت وردجنة لعله كلبنا ولعلنا بالقرب من دارنا ثم مالبثا أن حضر الكلب عندهما ووقف يتمسح فيهما و يقبل أرجلهما فاندهشا لرؤيته فرحا وانبسطا منه وانشرحا واذا بمرجان عبدهما على أثره يجرى وكان لايعلم مكانهما ولايدرى فلما رآهما بكى فرحا وطرب وأخذه فيهما العجب وبعد أن أفاق قال لهما يا أسيادى ان أميكما فى أشد العذاب على بعدكما وحصل لهما مزيد الغم حين رجعا للدار ولم يريا كما وكنت معهما لزيارة احدى الجارات وكانت مريم فى المدينة لقضاء بعض الحاجات فلم نعلم أين توجهتما وصرت أبحث فى كل مكان عنكما ثم جئت ببعض ملبوسكما وأشممته للكلب ففطن لما أشرت اليه وسار وسرت متوكلا عليه ساعيا بين يديه فأتى بى الى النهير الاسود ذى الحجر الجلمد فأخبرونا أنكما جئتما وكانت جارية معكما وان سيدها عفى عنها كرامة لكما لكن وا أسفاه وأى عفو عفى عنها وقد رأيتها ودنوت منها فاذا هى موثوقة العنق واليدين مكبلة الرجلين فتركتهم وتبعت الكلب أمامى وهو يدخل بى من مكان الى مكان الى أن وقف ينبح عند نخلة واقعة ونارها للجوط الالعة ثم أتى بى الى هنا وبلغنى برؤياكما المنى ونحن الآن على سفح الجبل الراسخ على البعد من منازلنا بأربعة فراسخ فكلا قبلا حتى تدب فيكما العافيه ثم أعطاهما أطعمة كافيه وأعطاهما شراب السكنجبيل و بعضا من مربى الزنجبيل

قال فتنهدت وردجنه على ما أصاب الجارية بعدهما وعلى ماقاسته أمهاتهما وأما مرجان فأحضر حطبا يقال له المدور من شأنه أنه يحترق وهو أخضر وفعل به فعله فأخرج منه شعله واحتار أمره بعد ذلك فى الرجوع بهما لان كثرة المشى قد أودت بأرجلهما وتردد بين أن يتركهما وحدهما ليجلب من يستعين به على

تخللهما و بين أن يبيت فى تلك الغابة بهما وقال لهما متأسفا حاسر البال كاسفا

مضى زمن كنت فيه قويا * أفوق بعزمى على الفائق
وكنت شديد القوى كالحديد * وأعلى من الجبل الشاهق
اذا ماحملتكما ساعة * كانى بريش على عاتق

ولقد صرت الآن قليل العافيه والله لا تخفى عليه خافيه أسئله بمنه وكرمه أن يسخر لنا عونا من غامض علمه فاتم دعاه وكمل انشاده وانشاه الاونفر من العبيد قدمن و وقف عندهم ونظر فعرف وردجنة وقبول وأشار كبيرهم يقول انكما والله من أطيب البيض خلقا وأحسنهم خلقا فقد رأينا كما صبيحة هذا اليوم عند شجر الدوم ومعكما جارية من النهر الاسود جاران لها من بدها مقربان لها الى سيدها وطلبتما منه أن يعفو عنها فلابد أن نحملكما الى داركما ونردكما الى أمهاتكما ثم أشار الى من معه من العبيد أن يصنعوا لهما هودجا من الجريد ثم أجلسوهما فيه وحملوه جملة ومشوا ومشى مرجان أمامهم بالشعله فقالت و ردجنة لاخيها أنظر كيف يسر الله لنا بالخيرات جزاء لما فعلناه من الطيبات قال فوصلوا نصف الليل الى سفح الجبل فنظروا على رؤسه عدة شعل وسمعوا على البعد من يقول هل فيكم ورجنة وقبول فصاح الجميع نعم هم بعينهم قد يسر الله بهم ثم انكشف الظلام عن أمهاتهم ومريم تحمل شعلة من ورائهم فقالت الست بدور أين كنتم وكيف خلفتونا ورحتم فانكم منذ غبتم غبنا عن الصواب وبقينا فى أشد العذاب

فقالت وردجنه كنا فى النهر الاسود نشفع فى جارية سيدها هناك وكنت أعطيتها الفطور لانها كانت أشرفت على الهلاك وقد أتى هذا الرهط بنا وحملونا الى ها هنا فانقضت الست بدور على ابنتها والى صدرها ضمتها فلما أحست بدموعها وشدة تشوقها وولوعها قالت لها كفاك ماقاسيتيه فى هذا اليوم وانك قد أحرمت لذة النوم ثم انها أدخلتها العشة معها وكان قبول يتبعها فضمت

أقحوان ابنهاضمة مشتاق وناحت عند التلاقي من ألم الفراق ثم دخلوا بيوتهم جاغفيرا وأعطوا العبيد أكلا كثيرا حتى خرجوا من عندهم شاكرين ولهم داعين بالخير أجمعين

قال وكانت أيامهم أيام أعياد وصدف أنسهم بغير ميعاد فلا الآتي يهمهم ولا الماضي يغمهم ولا شغل لهم بالمناصب التي تكسبها الدسيسه والطباع الخسيسه ونذهبها النميمه والاخلاق الذميمه بل كانوا مكتفين ببعضهم كل الكفاية غنيين عن الوالي والولاية لهم من أنفسهم شهود وحكم ومن كلامهم مواعظ وحكم لا حاجة لهم بأن يتشبثوا بأخلاق أهل الأمصار . في حب الاطلاع على شيء من الاخبار بل كان فضلهم بينهم منسيا وذكرهم مستترا مخفيا ان سئل عنهم قيل اناس من الطيبين وحزب من المتقين

شعر

كأنهم زهر البنفسج لا يرى * ولم يك لولا عرفه قط يعرف

وكنت لا تسمع في سيرهم غيبة ولا نميمه ولا شيأ من تلك الاقوال الذميمه فالنميمة تلوح في ثوب الحق على الظاهر وهي تسيء السرائر وتشين الضمائر فان قيل لك عن أحدانه من الاشرار أضمرت له العداوة كل الاضمار وقابلته بظواهر الصفا وأنت ناوله على القطيعة والجفا

قال الشاعر

ان النميمة تفسد الاخلاقا * وتكدر الاهواء والآفاقا

يكفيك منها في الرذائل أنها * تكسو المهذب مرية ونفاقا

وكان من شأن هاتين العائلتين أن لا يشتغلا الا بكل حسن زين يعاملان الناس باحسان ولا يقتفيان أثر انسان ومع عيشهما في ظل الوحده ووحشة العزله فازدادا الأنساو بهجة وفصاحة ولهجة لانهما عن قصص العالم مبعدان وعن أخلاق المدن منفردان وقد اعتاضا من محاسن الطبيعة بلذة تفوق اللذات

ومسرة من دونها جميع المسرات يشاهدان تلك الالطاف الالهيه والخيرات السماويه كيف بدلت محل الصخور بخصوبه ويابس الجو برطوبه ومالح الماء بعذوبه وأنبتت لهما المرعى وكانت غثاء أحوى انها النعم المثوى وجنة المأوى

قال ولما بلغ قبول اثنتى عشرة سنة عد من الكبار لانه أدرك من الذكاء وقوة البنية مالم يبلغه ابن خمسة عشر فى الامصار فكان يشتغل بتحسين مايفلحه عبده مرجان وكان دائما معه أينما كان يذهب الى الغابة بفاسه الصغير ومنجله القصير يقتلع مايراه من شجر الليمون والنارنج العطير والتمر الهندى النضير والنخيل ذا التمر الحلو الكثير ثم يغرسها حول الحوض مع بقية أبذار من الاشجار ذات الفواكه والازهار كالقشطة والعسل الفارسى والقاون الهندى ثم ماراج من ألباب القثا والدباء واللوف والبلاب والحبة الحمقاء ثم البقدونس والكسبره وغيرها من ذوات الاوراق المزهره ولم يترك قطعة من البور الا أبرقسمها وأبرأ نسمها حتى لقد غرس الصبر مع مرارته والفلفل على حرارته وماترك شيأ من الازهار الصفرا والورود الحمرا والخواتيم البيضا والفصوص الزرقا ورتب كل طائفة ترتيبا يسر الناظرين ويبهج المتفرجين فجعل الزرع القصير فى بطون الوديان وجعل فوقه كل عالى الاغصان ثم الاعلى فالاعلى والاحلى فالاحلى ليتمتع الرائى بالنظر الباهرتين وينشرح من وجهين فان نظر مرة واحده شرح العيون والافئده

ثم غرس الخضراوات على شق معزول ومكان مفصول وأحاطها بدروب من البر والارز والشعير وسائر البقول على النسق والتسطير ولم يخرج بها عن مراعاة النظير ومناسبة الطويل للطويل والقصير للقصير كالنبات الذى يحب الهواء جعله فى الهواء والذى يحب الماء جعله فى الماء وكان الماء المنحدر من رؤس الصخرات لبطن الوادى يتشكل باشكال مختلفه وهيآت مستظرفه

فكانت من رقة مائها وشدة صفائها تنطبع فيها الخضراوات وكافة الاشجار المزهرات وتلوح من خلالها صخور كالقباب على صفحة سماء نض عنها ثوب السحاب ومع عدم استواء تلك البقعه وارتفاع قطعة وانخفاض قطعه فكان لا يبعد النظر اليها بالعين ولا التناول منها باليدين وكنا ناساعد قبول أنا ومرجان ونرشده باليد واللسان حتى علمناه ومرناه والى الفلاحة وطناه ومهدناه فأصلح طريقا حول الحوض مظلله وأحاطه بشجر ذى فروع مذلله ومهد الوعر وجعله تماشى للنزهة وألف بين الشجر البرى والاهلى فى برهه وكلما زاد من الحجر بنى به مساطب واهرامات وأحاطها بما يليق بها من النبات ثم ما مضى من الزمن كثير ولا انقضى غير يسير حتى اكتسى كل هرم ثوب شباب وتلفعت المساطب بظلال الجزور والالباب فصارت معا كهف ومخادع ومسالك ومنافع يتظللون فيها نصف النهار ويتغذون منها بجنى الاثمار وكان اذا نظر الجالس منها عن يمينه رأى بستانا وعن يساره رأى الحوض بالحصائد ملئانا وان نظر امامه رأى موضع العشتين ونظر الجبل على بعد مرحلتين ومن جلس وقت الزوال تحت شجر الشنبر لم يرمن كثافته شيأ ينظر فان كان على الصخرة الثانية من الجبل نظر الحوض وما عليه اشتمل ونظر البحر ومواقعه ورأى السفن فيه بين ذاهبة وراجعه

وكانوا يجتمعون فى المساء على رأس الصخرة فيتمتعون بالماء والهواء والخضره ويشاهدون مجارى الماء العذب معسجده باشعة الشمس وهى نازلة فى الغرب وما أحسن ما اخترعوا من تسمية تلك المحلات وأبدعوا فى وصف المسميات فجعلوا اسم الصخرة المستحبة باسم استكشاف المحبة وكان قبول وورد جنة عند لعبهما فى ريعان شبابهما قد أنبتا فيها عودا من الخيزران أو قضيبا من قضب البان فاذا جئت نصبوا عليه منديلا ليكون بقدومى دليلا كما تنصب الاشارة على حصن الجبل لكل مركب دخل فخطر ببالى أن أنقش كلمات تحت عود

الخيزران كما كانت تنقش الكلمات على آثار المصريين واليونان وماخطر بفكرى الابيت أبى العلاء المصرى

شعر

معان من أحبتنا معان * تجيب الصاهلات به القيان

ثم نقشت على الجزع الذى كان يأوى اليه قبول حين كان البحر يهيج ويصول

شعر

من سكن المروج والرياضا * فقد قضى من عيشه الاغراضا

ونقشت على باب الست بدور وهو مجمع العائلتين فى العشاء والفطور

قصر عليك تحية وسلام * خلعت عليك جمالها الايام

ولما أن رأت وردجنه ما على الخيزران من النقش استطولته وأعابت من كتبه واستجهلته وقالت هذا كله نحوى وكلام لغوى فليتك لو مسحته وكتبت تحته

أهاجه الهوا * وقط ما هوى

فقلت لها ان تلك الكلمات من فضائل البنات فاحمرت من الخجل وولت على عجل ونهاية الامر فقد نشرت تلك العائلة ماتكن صدورها على جميع ماحولها فسمت برقيق الاسماء كل شئ يليق بأن يكون المسمى كشجرات من الموز والنارنج والفار كان قبول ووردجنه يرقصان تحتها فى آخر النهار فقد سموها بالحانه وكشجرة قديمة كانت الست بدور وأفحوان تتحدثان تحت ظلها بما أصابهما حين كان الفكر يقوم بهما سميت بدار السلوة والاعانة وسميا بعض الجهات التى بها البر والحص بأسماء بلادهما وكذلك العبد والجارية تقليدا بساداتهما سميا بعض محال باسماء بلادهما

فانعم بها من تعلة تروّح الفؤاد وتسلى الغريب على البلاد وكم من شجرة من تلك الاشجار التى تراها اليوم مهجورة قد تمتعت منهم باسماء مشهورة وغير مشهوره وهى الآن كرسوم الاقدمين وآثار اليونان والمصريين

شعر

ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام

وقال ابن الوردى

ان أهنى عيشة قضيتها * ذهبت أيامها والاثم حل

ولم أر أحسن منظرا من تلك المسميات وأكثر بهجة بين سائر المحلات من المكان المسمى بخلوة وردجنه فانه كان بقعة من بقاع الجنة وذلك انه كان عند الصخرة المسمعة المسماة باستكشاف المحبة عين جارية عذبة تسيل على بساط من المروج الرطبة وكانت لما وضعت أقحوان ابنها دعتني يوما عندها فاهديتها من ثمر الهند بجوزتين فغرست احديهما بالقرب من العين لتكون الشجرة تاريخا لمولده وقرينا لمحتده ولما ولدت وردجنه غرست أمها جوزة أخرى بجنب الاولى فصارت مثلها وان لم تشبهها طولا ثم أنبت الله الشجرتين نباتا حسنا وحفظهما مع قرينيهما زمنا ولما بلغ الولدان من العمر اثنتى عشرة سنة وأفرغا فى قالب ما أحسنه صارت الشجرتان تفوقان الدور فى الارتفاع انما كانت شجرة قبول أطول من الاخرى قدر باع ثم التفت الساق بالساق وانضمت الفروع للعناق فصارا كهيئة عاشقين وأدلى الجوز على العين وترك سفح الصخرة على ما خلق من فواقعها الصغرى والكبرى وأحجارها اليمنى واليسرى مع خضراء حشائشها الزبرجديه وحمراء ورودها الجوريه وعقيق حصبائها الراسب فى جدرانها ومرجانى شعابها النابت فى غدرانها ثم ماحفت به شواطؤها من يانع القرنفل وزاهى الياسمين والفل وما يدل على جوانب الجبل البيضاء اليققة من تلك النباتات الدابية المتسقة فتكون بمنزلة الحبك الاطلسية للفرش السندسيه والحواشى الهنديه على الثياب الصنعانيه فيراها الطير بعيدة المطال حميدة العاقبة والمآل فيأوى اليها نهاره وليله ويحمى بها أفراخه والعيلة قال وكانت تميل وردجنة الى أن تستريح فى هذا المخدع وتغسل بعض الملبوس فى ماء المنبع

أو ترعى قطيعا من المعز فى أطرافها المخضله فتكتسب ماءه ومرعاه وظله ولما علم قبول أنها تميل لهـذا المحل وتألفه وتتردد عليه وتستلطفه صار كلما طلع الغابة ورأى عش طـير وقابله فى هذا المحل نقله حتى ألفته الطيور على اختلاف أنواعها وصارت وردجنة تأتى اليهن كل يوم بصاعها فتلقط هذا من الغلة وتطعم ذالك من البسـلة الى أن عكف عليها القطا وأمن من الخطا ونام بغـير غطا وأوت اليه البلابل وكثرت الشحارير والعنادل فمن ذى ريش كالليل فى طرفه الشفق ومن عليه أثر رماد بعد أن احترق وذى قوائم كالعندم وسناقير كالعنم ومن لابس طوق الفضة على ثوب من العسجد ومخصر بوشاح من زبرجـد لا أقول كالذهب فى الاكياس ولا كالملح فى نفيس اللباس بل أبدع من ذلك وأصنع مما هنا وهنالك ان ظفرت بتصوره أعياك الافصاح ولو كنت مستمدا من من المصباح لنفد ما فيه وما فى الصحاح

شعر

فلله ما أحلى غـلاما وقينـة * على الخـير شبا والخنانة والبر
قد ائتلفا فاستأنس الوحش منهما * وحتى سرى التأليف فى معشر الطير

هـذا وكم مرة أكلت معهم فى الخـلا واجتمعنا فى مكان راق وحلا ولم يتكلف مطعمنا سفك دم الحيوان مع انه كان كثير الدسم والالوان كاللبن والقشطة و بيض الدجاج وفطير الارز على ورق الديباج وفواكه شتى ومطاعم من شهر ابن متا فما كان أحلى سمرهم وثمرهم وفواكههم ومفاكهتهم

وأما قبول فـكان لا يتحدث الا بشغل يومه وغـده وكان لا يمر غـير المنفعة على لسانه ويده فيقول هـذا الطريق يحتاج للتمهيد وتلك الخروق يلزم لها التسديد وهنا يلزم أن يكون كذا وبذالك تستريح وردة جنة وبذا فاذا دخل عليهم الشـتاء بمطره وهجم السحاب بقطره آووا الى البيت مع خـدامهم وجلبوا الخوص والخيزران تحت أقدامهم وجلسوا يتحدثون وهم يشتغلون

ومن الحصر والاسبات يصطنعون وتكون أدوات الزراعة الى الحائط مسنوده ونحتها محصولات السنة الماضية محفوظة مرصوده فيتخذون منها مؤنتهم وغذاهم ويدفعون بها احتياجهم وأذاهم وقد تعلمت وردجنة من خالتها عمل المربات النارنجيه وأنواع الاشربة الليمونيه وهذا الاشك يصف المزاج ويغني المريض عن العلاج

قال فاذا جن الليل عليهم أحضروا العشاء في ضوء المصباح وتفكهوا بالخوخ أو التفاح ثم غسلوا القدور وحضروا وحضرت الست بدور وأخذت تقصهم خبر من انقطع في مسالك اللصوص المفزعه أو حديث سفن رمت بها الامواج على جزر منقطعه فتقشعر لذكرها جلود السامعين ويدعون لهم بالسلامة أجمعين وكثيرا ما ناموا على السيول الهاطله وهي على سطح بيتهم نازله أو ناموا على ضجيج الامواج ودوي الرياح وهم في أمن شاكرين الله الى الصباح

شعر

وما لهم قط أعياد معينة * بل كل أيامهم أيام اعياد
الكون معبدهم والله مقصدهم * وصنعه كل يوم بينهم بادي
قد فوضوا أمرهم لله فاقتنعوا * بما لديهم من الملبوس والزاد
وأمهاتهم لما اقتصدن سرى * ذا الاقتصاد الى أرواح أولاد
عصابة ان أصاب الهم بعضهم * هموا به وأعادوه باوراد
كأنهم ضغث مرعى ضم أفرعه * ليستعين على الادواح في الوادي

فاذا جاء فصل الربيع ذو الغيث المريع خرجوا لزيارة جيرانهم الفقرا ولم يتداخلوا قط عند الامرا مع ان أغنياء هذه الجهات كانوا يتقربون اليهم على عدد الاوقات ويدعونهم الى اصطحابهم والاستئناس بهم فكانوا يعتذرون لهم بألطف الاعذار ويتخلصون من ورطة الدعوة بالاقتصار لعلمهم ان

الاغنياء لا يدعون الفقراء الا ليملقوا اليهم وهم مع ذلك يتعاظمون عليهم وكانوا الايألفون أحدا من فقراء البلد ممن شأنهم النميمة والحسد فكان تخلصهم من الجميع من باب الاقتصار لا من باب الانفة والاستكبار ولذا صار الغنى ينظرهم بعين الاحترام والفقير يقابلهم مع الابتسام وكم من فقير أعياه دهره وأرذله عمره وأتاهم متشكيا فواسوه واستعان بهم فأعانوه وكم مريض أتاهم بدائه فرجع بدوائه واستغنى بهم واكتفى ورزقه الله ببركتهم الشفا وكانت وردجنه تناولهم الدواء بيدها وتجود فى خدمتهم بأحسن ماعندها فترجع بعد شفائهم باكية من الفرح شاكرة لفعلها الذى نجح ثم تأتى مع أهلها لزيارتى فأقول لها أهلا وسهلا بجارتى الآن وجب على اكرامك وعظم لدى مقامك ثم أنجزهم موعدا وأهتم لهم فى الغدا وأكون قد أعددت لهم شيأ من الشراب العتيق بلون العقيق فنطرد به جيش الهم ونهزم بسطوته جنود الغم ونجعل مجلسنا على مصب نهر التنوير أو بظلة بجانب الغدير ونكون قد ادخرنا لهذا اليوم فواكه جنيه وحوماطريه وربما اجتمعنا على الصخرة يوم ريح فقعدنا نتحدث عليها ونستريح ونظرنا البحر العجاج وتلاطم الامواج فينزل قبول فيه يعوم فيطرده الموج فيأتى وهو مهزوم فتصيح وردجنه صيحة خوف وضجر وتقول لا أحب هذا اللعب لانه على خطر

وكان اذا انقضى الطعام ووجب القيام أخذ قبول وردجنه من يدها وشرع يرقص بها وهى تغنى بلذيذ النغمات وتنشد هذه الابيات

شعر

يا حبذا عيش الخلا * من الهموم قد خلا
مامن فتى يسكنه * الا وعيشه حلا
يامن لمج البحر قد * هوى هويت فى البلا
الارض أهنى منزلا * لمن أراد منزلا

ان لم تنــل نصيحتى * منك فلا حول ولا

قال وكان من عادة عبيد هذه الجزيرة أن يلعبوا التياترات الاشاريه ولا يخفى ان الاشارة هى أول لسان للطوائف البشريه ومذرأت وردجنه تلك الالعاب همت بتقليدها وأتقنت فى الاشارة بيدها وجيدها وكانت سمعت من أمها حكايات عـديده فكانت لا تقلد منها الا الاشـياء المفيده فكانت تلعب تارة وحدها وتارة كان مرجان يساعدها بأن يصاحبها بمزهره ويزيد عليها بعضا من مساخره وطالما جن الليــل علينا ونحن فى الغابة جالسون وكلنا ببعضنا مؤتنسون فنبيت على النجم النابت تحت الشجر لا خوف علينا ولا ضرر فاذا أصبحنا ذهب كل الى داره فيراها على حالها لـكثرة الامن فى هـذه الجزيرة وأهلها

وكان أسـعد الايام على الولدين مولد امهاتهما فانه اذا أقبـل ذلك اليوم عليهما تبيت وردجنه ساهره لتحضر ماتقدر عليه من الاطعمة الفاخره وتذهب فى غد ببعضه الى كثير من فقراء الجيران الذين لا مقدرة لهم على المطاعم الـكثيرة الالوان وكان اعتــذارها بقلة الموجود حين كانت تجود أوقع فى نفس الآخذ وأكثر شـكرا وأعظم عند الله ثوابا وأجرا

وقد شب هذان الشابان على سنن الجبلة الاصليه ونشآ على سنن الجبلة الغريزيه لا حاجـة لهما الى اتخاذ الساعات لمعرفة الاوقات ولا لقراءة الـكتب للاطلاع على ما مضى فى سالف الحقب بل كانا يعرفان المواقيت بالظـلال والفصـول بالثمر والسنين بالغلال فـكان اذا حان وقت الغدا ولاح زمن الزوال بدا تقول وردجنة لاهلها قد استوت شجرة الموز بظلها واذا ولى النهار وعزم اليوم على الفرار قال شجر التمر الهندى أغلف ورقه واغمض حدقه أوقالت لها جارة متى الزيارة قالت لها فى قصب السكر تزوركم وتهنى به وبكم فتجيبها بكلام منه أحلا بأن تقول لهـا أهـلا وسهلا وكم مرة قال لى قبول وما أحسن ما كان يقول

أراني كلما قابلت وردجنة وخلوت بها تجاسرت عليها وقلت لها اني كلما رجعت من أشغالي وأراكي وانظر فيك صنع من براكي زال عني تعبي وذهب ظمئي وسغبي وان كنت على شرف الجبل وأنت في الوادي حن اليك طرفي وفؤادي ورأيتك بين الروض وشجره أحسن مايلوح من زهره وثمره

شعر

واذا مشيت لدارنا فأرى القطا * وصغارها أردى وأبطا من مشى

أوغبت عن عيني تحت أريكة * فخيال جسمك في الجفون وفي الحشى

واذا مسستك عامدا أوساهيا * طرب الفؤاد من المسرة وانتشى

أتذكرين يوم حملتك على ظهري وعبرت بك النهر وأنا أجري كاني رزقت بحملك جناحين أوازددت على رجلي رجلين آخرين وكنت قبل ذلك أعياني المسير فكدت بحملك أن أطير فبأي حسن بهرتيني وأي سحر سحرتيني ان كان بعقلك فأمهاتنا أكبر منا عقلا أوكان بحنانك فهما أحن عنا قولا وفعلا أظن ذلك لكثرة ما أنت عليه من الطيبة فانها فيك عجيبه ولم أنس ماصنعتيه مع الجارية الفارة وما فعلت معها من الأمور السارة فخذي هذا الفرع المزهر من الليمون فانه أعجبني بين الغصون عطري به عند النوم فراشك واجعليه واسطة لانشراحك وانتعاشك وكلي هذا الشمع بعسله الشهدى فقد جنيته فوق الصخرات بيدي ثم انعطفي بكليتك على قلبي لاستريح من تعبي فتقول له وردجنة واحبيباه وقرة عيناه والله لانت في عيني أبهى من الشمس اذا طلعت وأبهج من الرياض اذا أينعت وان أبي وأمك لاحب الناس الي اذا أكرماك وبابنهما سمياك وان توددهما اليك ألذ من توددهما الي وتحننهما عليك ألطف عندي من تحننهما علي تسألني عن وجه انك تحبني ولاي شيء تريدني أما علمت أن من يتربون معا يتحابون طبعا فانظر الى حمامنا الذي تربى في دارنا ترى البعض مع البعض ان طار في السماء أونزل على الارض واسمعهم كيف

يتنادمون ومن فرع الى فرع يتراسلون انى والله ماسمعتك تعبث بزمارك وأنت على الجبل الاوصداه الى وصل فأعيد نغمته بصوتى وأجثو على الارض لوقتى وادعوا الله أن يحفظك ويبقيك ومن كل سوء يقيك فلأى شئ تتوغل فى الغابة وتتعب نفسك بهذه المثابه أليس عندنا فى البستان من تلك الازهار كما فيه من جنى الاثمار انظر كيف تصببت عرقا وزدت من حر الشمس حرقا ثم تمسح جبهته بمنديلها وتقطف ورد خده بتقبيلها

قال وبينما هى على ذلك مدة تلوح كالورده اذ أصيبت بداء مجهول وأمر مهول بأن تغير بياض عينيها باحمرار واحمرار خديها باصفرار وظهر عليها الهزال وانطفى سراج وجهها وزال وتغير مزاجها فصارت تغيب بلا سبب وتحضر بغير طلب وتركت ماعليها من أشغال العيله وصارت تهرب فى الاماكن المعتزله وصارت ان رأت قبول تهرع اليه وتلقى بنفسها عليه فاذا دنت منه وقفت وتحيرت واحمرت منه خجلا وتغيرت فلا تقدر أن تنظر اليه بعينيها ولا تمسه بيديها فيقول لها قبول ودمعه على خده سيول

شعر

كل شئ لما آراك تحلى * بحلاه وزاد لطفا وزينه
وأرى الطير ضاحكا من سرور * ولماذا أراك أنت حزينه

ثم يقرب منها ليضمها فتهرب منه لامها ولم يعرف قبول ما الداعى لذلك وما السبب فيما هنالك

شعر

واذا أصاب المرء بعض مصيبة * كرت عليه بعدها أضعافها

قال واتفق ان هاج الحر واشتد حتى لم يقدر على التنفس أحد وحلت الشمس فى بروج الحمل والتهب الجو بالنار واشتعل وهبت رياح السموم وتفتحت أبواب الجحيم وأمحلت الارض وتشققت ويبست الحشائش وتحرقت

واقحلت البراري والقفار وغاضت عيون الانهار فلن ترى سحابة من البحر مقبله ولاقطرة من السماء نازلة بل تكاثرت الابخرة الصفراء وتبدلت الخضراء بالحمراء وصارت الشمس عندغروبها كالحريق ودخل الليل مع الكرب والضيق وأحاطت بالقمر هالة حمراء وانتشرت فى الجو خيالات سمراء وضاقت المسالك والمماشى وضجت الناس والمواشى وشحت الموارد والمراعى وزهقت نفس المرعى والراعى وانتشر خشاش الارض وماج بعض الناس فى بعض وأحاطت الحشرات من ظمئها بالحيوانات لترتوى من دمائها فأحست وردجنه بازدياد دائها ولم تكن تعثر بدوائها فصارت تقوم وتقعد وتضطجع وترقد فلاتجد الراحة على أى حالة ويئست من النجاة لامحاله ثم توجهت للفسقية فرأت عينها مع اغورار العيون زائده ومياهها مع انتشار الحرارة باردة فانغمست بكليتها فيها وجلست على حوافيها

شعر

خليلى داويتما ظاهرا * فمن ذايداوى جوى باطنا

وقال آخر

صحت من لوعتى وشدة شوقى * الحريق الحريق فانفض صحبى
وأتوا بالمياه نحوى وقالوا * أين ذاك الحريق قلت بقلبى

قال فلما ابتل ظاهر جسمها وخف عنها بعض ألمها تواردت عليها أفكار نفائس وتصورات ابكار وعرائس فتذكرت أنها وهى صغيرة كانت أمها تغسلها مع قبول فى هذا المكان وأن قبول قد أتقنه بعد غاية الاتقان بان نحت به حوضا وجعل له من الرمل الابيض أرضا وغرس حوله سائر أنواع الرياحين وأغلب ماتزان به البساتين وجعله حماما لوردجنه وخلوة لهامستكنة ثم لما رأت عليها خيال شجرتى الجوز المغروستين يوم ولادتهما وانهما التفا على بعضهما تفكرت فى حبها لقبول وأشار لسان الحال منها يقول

شعر

أتنفس الصعداء حيث فضائلي * جلت براعتها بغير رواح
كتنفس الحسناء في المرآة اذ * نظرت محاسنها بغير زواج

ثم تفكرت في الليل والخلوه وانها كالعروس عند الجلوه ففزعت من الشجرتين المعتنقتين ومن حرارة لم تطفئها مياه العين وهلعت الى أمها عاضة بفمها على كمها وكلما بدا لها ان تبث ما تلقاه وان تفصح عمن تهواه غلب عليها الحياء فسكتت وقبضت على يد أمها وأمسكت واتكأت على صدر أمها وبكت قال ففطنت أمها الخبرها وعرفت حقيقة أمرها وقالت لها يا ابنتاه بثي حزنك لمن بيده الموت والحياة والهلاك والنجاة فانه تعالى اذا ابتلا في الدنيا يثيب في الاخرى واننا في تلك الدار ممتحنون وبالمحافظة على اعراضنا موكلون قال الراوي ثم تصاعدت من البحر أبخرة كثيفة فجاذبتها الجبال المنيفه وصارت رؤسها ترمى بشرر كالقصر كأنها جمالات صفر ثم هال السيل واستوبل الطل وامتلئت الغدران وجرت الوديان حتى صار الحوض كالبركة الكبيره وصار محل العشتين في وسطه كالجزيره وأصبحت فوهة الوادي كمصب النهر يخرج منه تيار عظيم فيصب في البحر وبقيت السكان تحت سقوفها تدعو الله وتصرخ وتستغيث والريح تنفخ وكنت من شدة لمع البروق ودخولها في المساكن من الخروق ترى ان الليل صار نهارا وان الجو ملئ شموسا وأقمارا وقبول مع هذا يخرج من مكان الى مكان ويصلح مع العبد ما تحتاج اليه العشتان وكلما رأى أهله في خوف قواهم وأوعدهم بالفرج ومناهم ولقد أبر الله قسمه وأبر انسمه اذ عن قليل تقشعت العواصف وسكنت الرياح القواصف وراق الجو واعتدل وسرى نسيم الشمال .

شعر

وقع الجنوب مع الشمال بفدفد * واستعملا حربا هناك طويلا

حتى رأينا بعد ذلك هوا الجنوب * مجندلا وهوا الشمال عليلا

فأول ما اشتاقت وردجنه الى رؤية شئ من الاماكن ومالت للتفسح فيه من المساكن كان الى مخدعها تلفها وتلهفها ولمحل استراحتها كان تشوفها وتشوفها فلما رآها قبول دنا منها مع الخجل ومد يده اليها وهو من الهجر على وجل لكنها قبلته واستصحبته وأحبت مجانسته مثل ما أحبته وخرجا معا والجو رائق والهوا للتنزه لائق فدخلا البستان وقد خربه السيل وأوقع به الويل فاقتلع أشجاره المثمره وذهب بقضبانه المزهره وملأ المماشي بالاشجار وردم حمام وردجنه بالرمل والاحجار وأما الجوزتان فلم يصبهما أذى بل بقيا على حالهما وحبذا ولا تسل عن المجالس المخضلة والمعاكف المظلله ولا الطيور الصادحه مما جرى لها البارحه فانه لم يبق الا بعض أفراد على رؤس الجبال يندبن ما أصاب أفراخهن من الوبال فحين سمعت وردجنه بكاء الطير ونحيبه وما نالهم من تلك المصيبه قالت لقبول انظر ما حل بالطير الذى ألفته والشجر الذى كلفته فلا أمان من تقلب الايام وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرام

فنظر اليها قبول وأنشأ يقول

لو أن لى فى السماء شيئا * لكنت أوهبته اليك
أو كان فى الارض لى متاع * قدمته بين راحتيك
لكننى معدم ومالى * سوى دموعى وقفا عليك

فاحمر من ذلك وردخدها وحصرته بين يديها وقالت له عندك صورة ورثتها عن أبيك وهى لك بغير شريك وقد قالوا عنها انها صورة أحد العباد وامام الزهاد فأعطنيها أتبرك بها فأشار برأسه طوعا لها وقام مسرعا الى دار أمه وأتى بالصورة فى يده فلما أخذتها أقسمت بالله أن لا تمكن منها أحدا وأن تحفظها معها دائما وأبدا فلما سمع مقالتها وحقق صدقها وأمانتها هم بتقبيلها فنفرت وتخلصت من يديه وفرت فأخذه من العجب زيادة لما رأى ذلك منها

على خلاف العادة وبقي متحيرا في أمره من شيء لم يره طول عمره
قال الراوي ثم ان أقحوان خرجت يوما من بيتها وتكلمت مع الست بدور في زواج ابنها بابنتها وقالت ان لاحدهما عند الآخر منزلة عظيمة ومحبة جسيمة وان ابني وان لم يدر بامر الزواج ولم يكن الى النكاح يحتاج لكنه اذا بلغ رشده وصارت أعضاؤه مستعدة لا ينفع الحرص عليهما ولا يمكن الاحتراس منهما فقالت لها انهم صغار وفي غاية من الفاقة والاضطرار فان نحن الآن زوجناهم وفرحنا بهم ندمنا غدا على حالة أولادهم وربما لا نجد وردجنة قوة على تربيتهم وأنت تعلمين علم اليقين ان عبدك قد بلغ الهرم وجاريتي صارت كالعدم وأنا من الهم وكثرة الغم صرت غير قابله لخدمة العائلة سيما ونحن في البلاد الحارة التي تهرم الانسان قبل الاوان ولم يكن لنا مأمول الا في ابنك قبول فاصبري حتى تقوى بنيته وتظهر قوته فيكون عضدنا وساعدنا وعلى العيشة يساعدنا لاننا كما تعلمين على فاقه وليس لنا على الكد من طاقة وماضر لو أرسلنا ابنك الى الهند بقصد التجارة ليدخر منها ادخاره ويعود مع الشطارة والمهارة

شعر

ويحرز الاصناف والنقودا * ويشترى الجوار والعبيدا
وبعد ذا الخير وهذى المنه * تزوجنه بوردجنه
فانه كفؤلها وأهل * ولم يكن له سواه بعل
ومع هذا نستشير جارنا * فهو على فاقته جار الهنا

ثم انهم بعد ذلك أحضروني وفي هذا الامر استشاروني فاستصوبت رأيهم وقلت لهم ان بحار الهند جيلة وأخطارها قليلة سيما اذا اخترنا من الفصول فصلا لطيفا ورأينا البحر فيه من العواصف نظيفا نجمع لقبول مقدارا من البضاعة وعندنا من التجار الذين يحبونه جماعة فلا يغيب الا بعض أسابيع في الذهاب ومثلها في الاياب ولا نأخذ له غير القطن والابنوس فانها عندنا كثيرة غير مطلوبه

وأما فى الهند فانها مرغوب به لان لها عندهم قدرا عظيما وثمنا جسيما ثم أوعدتهم بأن أشافه الحاكم عن هذا القبيل وأن أستأذنه عن الرحيل لكنى رأيت أن أتكلم قبلا مع قبول وانظر كيف يقول

هذا ولما أن قابلته وكلمته وبتلك القضية أعلمته تعجبت من جوابه الى وما استعمله من الرد على فانه ناشئ عن ذوق سليم وخبير عليم وذلك انه قال لى كيف تريد أن أذهب من هنا وأترك أهلى لابحث عما يسمونه بالغنا هل فى الدنيا تجارة أو بضاعه أحسن من الزراعه أليس الرجل يكسب فيها المثل خمسينا وربما بلغ مئينا وان أردنا التجارة فهى هنا ممكنه فى جميع الازمنه بأن نأخذ ما يزيد عن المؤنه ونذهب به الى المدينه فنكسب كثيرا من النقود ولا نحتاج الى وجوه الهنود هان قالت أمهاتنا ان العبد والجاريه قد هرما وفى السن تقدما فها أنا شاب ذو نجابه وكل يوم أزداد قوة وصلابة وربما نزلت بى فى السفر نازله أو حصلت لى حاصلة فأكون سببا فى مصيبتهم وداعيا الى بليتهم سيما وصحة وردجنه الآن منحرفه وأنا لا أتركها وهى بهذه الصفه

وفى الواقع أنه حيرنى بجوابه وأدهشنى بصوابه وكانت الست بدور أطلعتنى على أمر ابنتها وأنها ما عزمت على هذا الامر الا لصيانتها فقصدت أن تبعدها عن بعضهما مدة حتى يبلغ كل منهما أشده وما أظن أن قبول كان يتهم بمثل ذلك أو انه يتجارى على ما هنالك

قال وبينا نحن فى تدبير ولا نعلم بما جرت به المقادير واذا بخطاب ورد للست بدور من عند خالتها وكان الباعث لها على رسالتها انها مرضت بداء الازما وقيل بالانيا وهو داء لا شافى له غير الموت ولا خلاص منه الا الفوت ولولاه لما حن قلبها على ابنة أختها وما كانت يوما تفكرت فيها فطلبت منها أن تحضر عندها ان أمكنها والا فلا بد عن ارسال ابنتها لانها نوت على تربيتها وانها ستزوجها بأحد وجوه الدولة وأن تخلع عليها شرف العيله وتهبها مالها وتجود عليها بما لها

وجعلت قبول ذلك شرطا فى ارتجاع الالفة وتجديد المحبه والمعرفه
وما تمت قراءته هذا الكتاب الاوحصل فى البيت انقلاب وانتشر الهم والغم وبكى
مرجان ومريم واندهش قبول وسكت ونظرت وردجنه الى أمها وبكت
فقالت أفحوان للست بدور هل لك فى السفر والقطيعه حبا فى تلك الحالة
الشنيعة فقالت معاذ الله أن أترككم وأنا ماعرفت السعادة الابكم فان صحتى ما
انحلت وبنيتى ما اضمحلت الامن هموم قديمه وأمور وخيمة منها قسوة أهلى
وموت بعلى وماهنانى وسلانى وفرج كربى وأحزانى الا اجتماعى بكم
ووجودى معكم فكم شاهدت فى هاتين العشتين المسره ولقيت فى ظلالها
المعزة والمبره ورأيت مالم أره بين أهلى وناسى بالبلد التى هى مسقط رأسى وما
فرغت من قولها حتى طابت نفوس الحاضرين وقرت عيونهم أجمعين وقام
قبول الى الست بدور وضمها ثم بعد ذلك قال لها وأنا الآخر لا أسافر الى الهند أبدا
بل أبقى هنا فى خدمتكم عبدا ونحن لسنا محتاجين الى شئ من البلاد الاجنبيه
ولا للخروج من تلك الجزيرة البهية فانشرحوا كلهم الا وردجنه فانها بقيت
مشغولة البال ثم بعد قليل صرف عنها الاشتغال وزال وانبسطوا أجمعين وباتوا
بمالديهم فرحين فلما أصبح الصباح وانتشرت الانوار فى البطاح حضروا للصلاة
على حسب العاده وأحضروا الفطور بالطريقة المعتاده فأخبرهم مرجان
عن أمير مقبل على حصان ووراءه من العبيد اثنان وكان ذلك القادم هو حاكم
البلده فترجل ودخل عليهم وحده فوجدهم كلهم حاضرين وعلى المائدة قاعدين
وكانت وردجنة قدمت لهم شربة من الارز واللوز وفاكهة من ثمر الموز
ثم شيأ من مقلى البطاطس فى صحاف من القرع اليابس فلما رآهم الحاكم
على تلك الحالة تأسف وأقبل على الست بدور وهو يضرب كفا على كف ويقول
ان اشتغالى بامور عموم العباد ألهانى عن الالتفات الى خصوص الافراد ولقد
أخطأت فى عدم السؤال عنكم وأطلب السماح منكم لكنك أيتها الست

بدور لك خالة من الاكابر وأغنياء أهل الجزائر قد أعدت لك أموالها وسلمت لك أمورها وأحوالها فهل لك أن تسافري لها وتقيمي عندها فقالت له يالبتي أقوى على السفر وليت مزاجي ما كان تغير فقال لها ان كان الامر كما تذكرين وانك هنا من القاعدين فانظري الى ابنتك هذه ووفاقها ولا تحرميها من ارث خالتها ولا أخفي عنك ان خالتك قد استعانت بالحكومة على جلبك فبادرت فى طلبك وكتب الى الديوان مع الاستعجال ان استعمل القوة ان اقتضى الحال انما لمعروف منى وشفقة صدرت عنى أتيتكم مع اللطف وما اتخذت الانفة ولا العنف وفى أملى انك تستغنين عن ابنتك بعض سنين وهذه المدة ينبنى عليها اصلاح أحوالها وأحوالك وازدياد أموالها وأموالك ثم وبالله عليك لأى شئ يترك الانسان وطنه ويعذب روحه وبدنه ويهاجر الى مثل هذه الجزيره مع مكابدة المشاق والحيره أليس لكسب الدراهم وجلب المنافع والمغانم فما أغرى الانسان بهذا العذاب ان أمكنه فى وطنه ذلك الاكتساب

ولما فرغ من قوله وضع لهم كيسا مملوأ فلوسا وقال لها خذى هذه الدراهم من قبل خالتك قد أرسلتها لمشترى لوازم سفر ابنتك ثم التفت للست بدور وقال لها وأنت لم لاتزورينا وفى بعض حوائجك تستقضينا حقيقة ان هذا منك عدم اعتنا وقصور منك فى حقنا

فقال له قبول ان أمى قصدتك فى أمرها فما كلتها وأنت عندك فما أكرمتها فقال الحاكم للست بدور ألك ولد آخر فقالت هو ابن صاحبتى وهو عندى فى المعزة بمنزلة ابنتى فقال له الحاكم ياولدى انك اذا علمت بأحوال الدنيا عذرت ذوى المناصب العليا وعرفت ان الامور تلتبس عليهم بعض الاوقات فينزلون الطيبين مكان الخبيثين والخبيثين مكان الطيبين ثم انهم رجوه أن يجلس معهم ليجلس وأكل من طعامهم وتأنس وانشرح صدره من نظافة بيوتهم على

صغرها ونظام أمتعتهم على حقارة قدرها وعجب من ائتلافهم ببعضهم و بذل جهد خدماهم بهم فقال ان أوانيكم وان كانت من الفخار يظهر عليها المجد والفخار لانى أرى عليها من اللطف طلاوه ومن الساذجية حلاوه سيما وباستعمالها بين أناس مثلكم كرما أصدقاء بينهم عظما تظهر بهجتها وجمالها ويشرف استعمالها

فسر قبول من أدب ذلك الحاكم وثبت عنده أنه عادل غير ظالم فقال له انى ليسرنى أن أكون من أصحابك وان أنتظم فى سلك أحبابك لانك من أطيب الناس ذو درجة بالغة فى الايناس فشكره على هذا المقال وصافحه مصافحة الرجال وأوعده أن يكون له معينا وصادقا وأمينا ولما انقضى الطعام ونفر الكل الى القيام أخذ الحاكم الست بدور وحدها وانفصل بها عنهم وقال لها اليوم تحضر سفينة من السفن المتوجهة الى الجزائر ولا بد لابنتك فيها أن تسافر وانى لصاحبها بامرأة من أقاربى وأعز حبائبى فأوصيك أن تنتهزى هذه الفرصة الممكنه وتستغنى عن ابنتك قدر سنه حتى تنال هذا الميراث العجيب وترجع عندكم بالفرج القريب ثم قال لها وهو خارج من عندها اعلمى ان خالتك لا تعيش الا سنة أو سنتين وقد أخبرنى بذلك من رآها بالعين فتفكرى كما تفكرت وتأملى فيما ذكرت واعلمى ان الغنا لا يتيسر فى كل الاوقات وانه لا ينفع الندم على شىء فات فقالت حيث لا يهمنى الا هى فقد فوضت أمرها اليك وتوكلت على الله ثم عليك قال وما صدقت الست بدور ان لاحت لها هذه الفرصة حتى انتهزتها ولا ظهرت لها تلك الطريقة فى ابعاد ابنتها عن قبول حتى اتخذتها ليكون اجتماعهما بعد ذلك أوفق وزواجهما قد وجب واستحق ثم انها أخذت بنتها وحدها وشرعت تفهمها بما بدا لها وقالت لها ان خدامنا قد طعنوا فى السن وقبول صغير لا يتقن أمر المعيشة ولا يحسن وأفحوان أمه قد هرمت وأمك فى السن تقدمت فما دامت فما يكون حالك بعدى وأنا فقيرة

لاشئ عنـدى وأنت فى مكان قفر لامال عنـدك فيـه ولاوفر فمن ذا يقوم بخـدمتك ويـسعى فى مؤنتك وان ألجأتك المعيشـة الى الـكد تشتغلين فى فلاحـة الارض مع النـكد فكلما فـكرت فى عاقبة أمرك بعدى تقطع قلبى وكبدى فقالت لها وردجنه ياأماه لاحول ولاقوة الا بالله ان الله خلقنا للسعى والاشغال وأنت عودتينى على ذلك فى جميع الاحوال

شعر

والله ربى وهو حسبي وكفى * قد سـتر البدأ فنرجوه الوفا
لم ينس قط فى الزمان الأول * فـكيف ينسى فى الزمان المقبل
وهـذه الرقة فى العباده * لمنك ياأماه مسـتفاده
وانى لاأسـتطيع البعـدا * عن هاهنا طرفة عين أبدا

فقالت لها أمها وهى فى أشـد الغصص وقلبها يذوب من الغصص ان قصـدى بسفرك اصلاح شأنك وعلوقدرك ومكانك ثم أزوجك عند العودة بقبول والله وكيل على ماأقول فانه كفؤلك وأهـل لان يكون بعلك (قال الراوى) واعلم ان البنت اذا عشقت ظنت ان لاأحـد يعلم بحالها وان لامطلع على مافى بالها وان الحب الـكامن بين جنبيها لايظهر للناس من عينيها فاذا حركت يد الحبيب أشجانها واستـكشفت أرجائها وأركانها وكان ذلك الحبيب قريبا مليبا للدعوات مجيبا أمنت تلك البنت وسلمت وبما فى ضميرها تـكلمت وان وردجنـه حنت لتلطف أمها وباحت لها بسرها وأسـفر قلبها عما وراه وأظهرت مالم يعلمه الا الله فعذرتها أمها على عشقها ولم تعنفها على كثرة شوقها بل خافت عليها من الفضحه وشرعت ترشـدها بالنصحه فتجاسرت وردجنه وكثرت قواها وأكثرت لامها من شـكواها وأظهرت ان لاسبيل الى الفراق وانها لاتخاف من أحد على الاطلاق

فلما رأت الست بدوران تلطفها بابنتها وماأظهرته من امنيتها لم يفدها غـير

المخالفة والعصيان والميل الى هوى النفس والشيطان قالت لها يابنتاه لاتثريب عليك فالامر مفوض اليك فانفردى بنفسك وتدبرى وامكثى وحدك وتفكرى وان كان عندك بعض من المعقول فلا تظهرى عشقك لقبول

ان الحبيب اذرآك تحبه * كتم الوداد وأظهر السلوانا

وبينماهما يتحدثان وحدهما وقدجن الليل عليهما واذا بشيخ فقيه قد أقبل وسلم عليهما حين دخل وكان من فقهاء تلك الدور قد اعتاد على قراءته فى بيت الست بدور وقد كان أرسله الحاكم فى خدمتها وان يؤكد عليها فى سفر ابنتها فقال عند دخوله وبمجرد وصوله الحمد لله الذى أغناكم بعد الفقر وعوضكم خيرا بعد طول الصبر فتواصوا خيرا بالمساكين فان الله يحب المحسنين أما بعد فقد بلغنى ماقاله لكم حاكم تلك الجزيره السيد البردينى صاحب النعم الكثيره وأعلم ماصدر عنه من القول المفيد الناشئ عن الرأى السديد فأما أنت يابدور فسفرك من هنا غير مقدور فان صحتك اعتلت وعافيتك قد ولت وأما أنت أيتها الصغيره فلاعذر لك فى السفر ولابد من تسليمك للقضاء والقدر وان تطيعى أمر الاقارب وان ظلموا وان تسلمى لما به حكموا فان سفرك وان كان لا لأحد برضاه فهو على ماحكم الله فلقد أنزل تعالى فى كتابه العظيم على لسان نبيه الكريم قل لاأسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى وان سفرك ان شاء الله لنعم العقبى أفتعصين الله ماأمر أم تسلمين للقدر

قال فأطرقت وردجنه زمانا برأسها وهى لاتشعر بنفسها ثم قالت وهى ترتعد ولم تكن عن المقصود تبتعد حيث ان الله أراد فلابد أن يقضى المراد ثم بكت بكاء شديدا ماعليه من مزيد وذهب الفقيه للحاكم وأخبره بالنجاح وقال له ان وردجنه رضيت بالسفر ولم تحتج الى الحاح

أما الست بدور فانها أحضرتنى وفى سفر ابنتها استشارتنى فما رضيته

بسفرها وماأعجبني رأيها بل قلت لها ان الغنا في الخيرات الطبيعيه لا في الثروة الماليه وانناإذا عدمناشيأفي أرضنا فلاحاجة للبحث عنه في أرض غيرنا وما تركت الاوائل كلمه لقائل

فيم اقتحامك لج البحر تشربه * وأنت يكفيك منه مصة الوشل

وقال الشافعي

أمطري لؤلؤا جبال سرنديـب وفيضي آبار تكرور تبرا

أنا ان عشت لست اعدم قوتا * واذا مت لست أعدم قبرا

واذا مارضيت بالعيش قوتا * فعلى م أزور زيدا وعمرا

وقلت في معنى آخر

ولكن ماعسى يغنيك نصحي * اذا أغراك بالطمع افتتان

وان أصماك في الدنيا طلاب * فما يغنيك من وعظي بيان

فان الست بدور مااستشارتني الا في الظاهر ومراعاة للخواطر لانها كانت أعطت للفقيه قولا وأصرت على سفر ابنها من باب أولى وأماأفحوان فمع علمها ان سفر وردجنه يعود بالخير على ابنها لم تزل تتوقف في السفر وتظهر منه الاذى والضجر ولما رأت ان توقفها لم يجد نفعا وان السفر تحتم قطعا رجعت عن المعارضة والمناقضه وسلكت مسلك المفاوضه وكان قبول يجهل باطن الامر ويتعجب من مسامرتهم في السر ومن خلوة الست بدور بينها وانفرادها بكالنها وقال انهم يتحدثون من قبلي ويتغامزون على شيء من أجلي ثم لما أشيع بين أهالي هذه الجزيره ان الغنا زاد أهلي تلك الجزيره نسلت التجار اليهم من كل الجهات وأحضرت كامل البضائع والمهمات كالشاهي والكشمير وأقمشة الصوف والحرير والخز الشامي والديباج الصنعاني والاطلس والحبر ومايصطنع باليد ومايشتغل بالابر وهكذامايذهب بالذهب ويؤدي بالمال والنشب

وقد خيرت الست بدور ربتها فى مشترى مايعجبها وأخذ مايلذبها وهى تفصل لها الاثمان وتعطى الدراهم لصاحب الخان ولم تختر وردجنه الا ماأعجب أمها وأعجب أقحوان وابنها بأن اشتر واهذا لك وهذا ليه وذا للعبد وذا للجاريه حتى نفد مافى الكيس من القروش فى ثمن المرسوم والمنقوش ولم يبق فيه أثر ولا مايستعان به على لوازم السفر وكانت هذه الثروة الباهره وتلك الاقمشة الفاخره تعتبر عند قبول بمنزلة مصيبته لانه يترتب عليها سفر حبيبته فجاء عندى بعد ذلك بأيام وهو فى غاية من الوجد والهيام وقال لى وهو فى أعلى درجات الغم وجسمه مهزول من شدة الهم ان اختى شدت للفراق رحالها وعلقت بالسفر آمالها فبالله عليك الاماجئت عندنا وسعيت بالنصح بيننا والحجت على أبى وأمها ومنعتها من سفرها فقلت له سمعا وطوعا ولابد لى فى ذلك ان أسعى قال فتوجهت اليهم ودخلت يوما عليهم فرأيت وردجنه وكنت بالقماش الازرق أستملحها وبالعصابة الحمراء أستسمحها فناهيك بها وقد رأيتها فى أتحف الملابس وأغنا الحرير والاطالس تخب فى بطائن ورديه وتعثر فى أذيال عبقريه قد انخفض خصرها النحيل لما ارتفع ردفها الثقيل وانتصبت تيجان ظفائرها الجعديه لما انكسرت حروف أجفانها الابجديه وخفقت رايات قلبها المتيم مما منه تتألم فأذكت نار الوجنات ومزجت صوتها بأرق النغمات وكان اجتماع تلك الزينة المغصوبه على هذه الذات المحبوبه سببا لهزال يرثى اليه وفتور يبكى عليه فمن نظر اليها ذهبت بلبه وأخذت بمجامع قلبه ولقد زادهم قبول وغمه حتى أشفقت منه أقحوان أمه وقالت له ياولدى لاتمكن تلك الاباطيل من ذهنك فيعود الحرمان منها بالاذى على بدنك اليوم أعرفك من أنت ومن أنا وما السبب الداعى لهذا العنا الذى نشأ لى من الزنا أما أنا فانى قطيعة دهر وحليفة ضعف وفقر خرجت من بلدى بائسه فقيره وجئت لأعيش فى هذه الجزيره وأما وردجنه وأمها فانهما من الاكابر ولهما خالة من

أغنياء أهل الجزائر فلم يفهم قبول ما معنى الزنا وسأل أمه هل هذه اللفظة من ألفاظ الخنا فقالت له نعم لان أباك لم يأت بك الا في السفاح وما عقد على عقدة النكاح وكنت عشقته وأنا بكر عوان فأوقعت نفسي في ذنب لا يمحوه الا الغفران وجئت أنت باسم باكورته وأول ما طلع من ثمرته فأحرمت به من نسبك الى أبيك وعمك وترتب على كفارة ذنبي حرمانك من عائلة أمك لاني بعد هذا هجرت بلادي وجئت هنا بك وحدي فصرت يا مسكين عديم الاهل والاصحاب ليس لك غيري من الاحباب ثم بكت وولولت وسجلت وحوقلت فأمسكها بين يديه وضمها بين ذراعيه وقال لم يبق في الدنيا غيرك وليس لي خير الا خيرك وهذا سبب لان أحبك حبين وأقوم بخدمتك مرتين وما أعظم سرا عليه أطلعتيني والله لقد أرشدتيني وعرفتيني أجل ان هذا سببا في نفور وردجنه مني وداعيا العدم سؤالها عني فان لها شهرين وهي عازمة على السفر فلا شك ان قلبها مني نفر

قال ولما جاء العشاء وجلس الكل على المائده كان جلوسهم بغير فائده اذ كان لكل منهم شأن يغنيه وشاغل يشغله ويلهيه يأكلون قليلا ولا يقولون قيلا ثم ما أسرع ما قامت وردجنه أولا وجلست في مكان غير بعيد في الخلا فتبعها قبول وجلس بجانبها ومكثت تراقبه ومكث يراقبها وانقضت عليهما ساعة وهما ساكتان ولبعضهما ملتفتان وكانت ليلة نيره ذات سماء مقمره زائدة الاتحاف والالطاف لا يرسمها رسام ولا يصفها وصاف قد نزل البدر منها منزلة القلب ونشر أشعته على الشرق والغرب فلا يستره الا أرضباب أو بعض سحاب كأنه حين تجلى على بساط الخضره بدر عليه من الفضة بدره وكان الريح ممسكا نفسه والليل مطلقا عسسه فلا يسمع في الغابات ولا في الوديان لا صوت انسان ولا صوت حيوان الا مناغات الطيور في أوكارها ومداعبتها مع صغارها مسرورين من القمر وضيائه وسكون الجو في جميع أرجائه

وكانت النجوم تسطع فى السماء وتعكس خيالها فى الماء فنظرت وردجنه الى السماء وأطرافها وتطلعت حول الارض وأكنافها فرأت على البعد نار قوارب الصيادين ثم كشفت نورا وظلا فى المينا على جهة اليمين وكان النور نور فنار البلده والظل ظل السفينة التى كانت لسفرها معده وما أخرها عن القيام الا انتظار سكون الريح وظهور الوقت الملائم فلما رأتها اقشعر جلدها وتفتت كبدها فالتفتت برأسها تتوارى بكاها خوفا على قبول من أن يراها قال وكنت أنا والست بدور وأفحوان جالسين غير بعيد عنهما وكنا من هدء الليل وسكونه نسمع كلامهما فسمعت قوله وحفظته كله

وذلك أنه قال لها انى سمعت عنك بعض كلام وهو انك مسافرة بعد ثلاثة أيام أما تخافين من البحر وأهواله والموج وافعاله فقالت له ان طاعتى لاهلى أهم والقيام بتلك الفريضة ألزم فقال أتتركينا لأجل خالة مبعده وامرأة مفقده ماعرفتها وطول عمرك مانظرتها فقالت واحسرتاه كنت أود أن أبقى هنا مدة حياتى ولا أفارقك الا عند مماتى لكن أمى لم ترتضيه وقد قال لى سيدنا الفقيه ان هذه ارادة الله واننا فى دهرنا ممتحنون فآه ثم آه والله ان ذلك لمن أشد الابتلا وأضر من البلا فقال من أجل ذلك عزمتى على البعاد وأنه لامانع لذلك ولا راد فلابد لذلك من سبب لم تذكريه وداعيا فى السر أضمرتيه وهو حب المال فياله من غرور وباطل وجيد من الحلى عاطل وعما قليل تجدين أخا غيرى واذا ذكرت يوما فلا يهمك ذكرى وانك ستختارين أحدا مثالك فى الحسب وكثرة المال والنسب وأما الاقدرة لى على تلك الثروه ولا لى بمثل هذه الحظوه لكن ما أظن ان ترتاحى فى أى محل تنزليه أو تجدى مدينة أحسن من تلك المدينه أو ترى ناسا مثلنا تربوا على الالفة والمحبه وتمكنوا من العشرة والصحبه وكيف تعيشين خارجا عن حضانة أمك التى اعتمدت عليها وكيف يكون حالها وقد طعنت فى السن ولم ترك نصب عينيها وكيف يكون حال

أمي وهي تحبك حباجا ولا تحتمل غيابك عنها يوما بل وماذا أقول لهما وهما يبكيان على غيابك ويتأسفان على ما أصابك انك لفي غاية القسوه وعلى خطر من هذه الخطوه ثم لا أقول كيف يكون حالي ومامقدار ما تزيد الليالي وكيف اذا أمسي اليوم وأصبح ولم أر وردجنتك بهقح وأرى هاتين الشجرتين اللتين غرسناهما منذ ولدنا ومكثناما عشنا وماوجدنا وهما يشهدان لنا بالمحبه وطول العشرة والصحبه فأواه ثم أواه ولا حول ولا قوة الا بالله

شعر

لئن تبدلت بنا غيرنا * فحسبنا الله ونعم الوكيل

فاياك ياوردجنه ان تقصدي غير قصدي أو تلتفتي لغير ما حصلته من كدي وان كان لا بد من الترحال كما اقتضاه الحال فأرجوك ان أركب معك في السفينه وان انتقل بك من مدينة الى مدينه فاساعدك على السفر وأقوى قلبك على خطر البحر حتى اذا دختي من البحر وجدتي صدرا تستريحين عليه وقلبا تلتجئين في كل الامور اليه فانك اذا استرحتي على صدري وقف الغثيان البحري أعارك نارا تدفى وعلاجا من كل داء يشفى ثم أسير معك من بلد لبلد لعلنا نسعد ولم أزل معك بمنزلة الرفيق والخادم الشفيق فأملي أن أكون لك عبدا وان أزداد من خدمتك سعدا وجل قصدي ان أراك في ثياب العز ترتعين وأصبح بخدمتك أغنى وأشرف الناس أجمعين ومهما تطلبين أن أبذل الروح تحت أقدامك فقد بلغك الله من ذلك أقصى مرامك

قال واختنق عند ذلك بالبكى وأطرق برأسه على يديه واتكى ثم سمعناها وهي تبكي هي الاخرى وتصلى النار الكبرى وتقول ان سفري للسعي في المال قد أوجب له الحال وذلك لاني أراك من فلاحة الارض قد انحنى ظهرك واعتل صدرك وعيل صبرك وأنت مكدود لغذاء عائلتين ومتعب نفسك على كلا الحالتين فاجنحت لي السعادة والغنا الا لانقذك من هنا واذيقك أيام

المنا حتى أكافى نعمك وأجازيها وأوفيك الف مرة على كل مرة خدمتنا فيها وان السعادة وان بلغت مهما بلغت من الدرجات لا تعدل حبى لك فى وقت من الاوقات وأما نسبك الذى تذكرلى عنه فانى لم أر نسبا أطهر منه وانى وان خيرت فى الاخوان مااتخذت غيرك انسان انك ياقول أعز عندى من الشقيق وألطف فى الروض من الشقيق وانى وان كان لى فى فراقك أشد العذاب لآمل ان تكون ناصحى فى هذا الباب تعيننى على سفرى وتمكننى من وطرى حتى يشاء الله فنجتمع ونختلق من محاسن الوصل ونبتدع هذا وأنا على عهدك ان سافرت أو بقيت وفى ملكك ان مت أو حييت فتصرف فى كماشئت فانى لولا الحياء خلعت برقعه عليك ولولا الحب لما وقفت بين يديك فلا تشوش ذهنك فان ذلك يعذبنى وعلى فراش الجمر يقلبنى

فلماسمع قبول هذا القول أسرع بضمها وحصرها كالوردة فى كمها ثم صاح مهللا وأشار قائلا

والله لا يغنمني منك ذو نشب * ولا أمير غني شأنه عالى

والناس لوحكموا طرا بفرقتنا * لما تصورتهم شيأ على بالى

أنا والله لا أفترعنك طرفة عين ولو قضى الله على بالحين ان سافرت فأنا معك وان سبقت فأنا أتبعك

قال فخرجنا كلنا اليه نجرى وهو من شدة هيامه لايدرى فقالت له الست بدور ياابنى وأنت اذا تركتنا فمن ذا يعولنا فأجابها وهو مضطرب ومن الجنون مقترب ان دعوتينى بابنك فقد صرت أمها وأمى وجعلتينى أخاها وجعلتها أختى فكيف تفرقين بين الأخوين وتبادرين بفصل التوأمين اما انك أرضعتينا وعلى ذراعيك حملتينا فعودتينا من الطفولية على المحبه وان لايبعد بعضنا عن البعض وزن حبه والآن ترسلينها الى أهل متكبرين بين أمم متبربرين أما تنظرين لقسوتهم كيف هجروك وهل أنسيت مافعلوه فيك

ان قلت انها ليست أختى وانك أمها ولست بامى وانى مقطوع الحسب
النسب عديم المال والنشب قلت هى حسبى ونسبى وأمى وأبى فلا أعرف
نيأسواها ولا أعيش قط بلاها وكبار بيناوحدنا فكذلك لانعدد عند الموت
لحدنا وان هى سافرت فأنامعها وفى كل مكان لا بدان أتبعها فان منعنى
لحا كم من السفر فلا يمنعنى ان ألقى بنفسى فى البحر

شعر

قالت ألا تلجن دارنا * ان أبانا رجل غاير
قلت فانى طالب عزة * منه وسيفى صارم باتر
قالت فان البيت على البنا * قلت فانى فوقه طائر
قالت فان البحر من بيننا * قلت فانى سابح ماهر

فحسبك الله ياأقسى الامهات وأغلظ النساء والبنات أسأل الله الكريم رب
العرش العظيم ان البحر الذى تعرضونها لاخطاره وتودعونها بين موجه
وتياره أن لا يردها عليك سالمه ولا يرجعها غانمه وأن يغرقها و يغرقنى معها
وان رمال الشط تجمعنى وتجمعها فنكون حسرة لكم على الدوام وكسرة
لقلو بكم مدا الايام

قال فلما سمعت هذه الالفاظ وانه أغلظ كل الاغلاظ أمسكته من يديه وقد
شهدت علامة اليأس بين عينيه وانه خرج عن الاصول وفقد المعقول
والمنقول فكانت عيناه كالشرر وكان عرقه يتقطر وهو يرتعش بركبتيه
وقلبه يصفق بدفتيه فانزعجت من ذلك وردجته وقالت له ياحبيبى وحق
لذات الصغر وماقاسيناعلى الكبر ومن بين [illegible] الاخ والاخت
و بوصل بين عاشقين سيء البخت لئن بقيت ههنا لا كونن خادمة بين يديك
ولئن سافرت و رجعت لأفضل أحدا عليك وأشهدكم بذلك على أيها الواقفون
بين يدى فأنتم علمتم صغرى وخدمتم كبرى والآن ترون أدمعى وتعلمون

بمقدار توجعي وأقسم لكم بالله العظيم رب العرش الكريم وبذلك البحر المقدور على عبوره وبالقدر المكتوبة على جبيني سطوره ان الذى قلته لهو الحق وعين الصدق

فلما سمع قبول صوت حبيبته زال اغتياظه وانطفى شواظه وزاد فى خشوعه وجرت غدران دموعه كالشمس اذا طلعت على ثلج زال ... فانسكب ماء وسال فبكت أمه على بكاه وضمته وقالت آه وأما الست بدور فكانت فى غاية من الاضطراب وأليم من العذاب وقالت لا جلد لى على ذلك فان رأسى تصدعت وأحشائى تقطعت فلا حقق الله هذا الفراق فانه مر المذاق أرجوك ياجارنا ان تأخذ قبول لا عندك اليوم فان لنا ثلاثة أيام لا نرى النوم

قال فسحت أدمعى وأخذت قبول معى وقلت له ان ... اقيم بينا وانها لا تسافر من عندنا فكن على يقين مما هنالك وفى غد أتكلم مع الحاكم فى شأن ذلك وأما الآن فلابد أن تتركهم يستريحون لعلهم بعد طول السهر ينامون فسر بنا الى دارى فان الليل قد ... الأفق وقف فمشى معى ولم يتكلم وبات فى أرق لم ينم حتى ... فنم وخرج الى بيته ورجع

ثم سكت الشيخ عن الحديث لحظة لا ينطق بلفظه ... متى أطيل الشرح فى هذه القصة وما الحاجة لنا بتلك الغصة

شعر

انما العيش كله طرفان * طرف مقبل وآخر فانى

أشبه العيش كله كرة الارض * ووجه التشبيه فى الدوران

فلنا فى الضياء يوم نقضيه * وفى الظلام يوم ثانى

فقلت له بالله عليك الا ما أتممت هذه القصة الغريبة وعرفتنى عن حال قبول فى تلك المصيبة فان الحديث عن المواهب يا ... من النوائب

يدرب المرء و يعلمه

قال فلما رجع قبول من عنـدي وتركني وحدي رأى في طريقه مريم الجاريه واقفة على صخرة عاليه تنظر للبحر بتحسر ودموعها في غاية التصدر فقال لها قبول أين وردجنه لا بدلو فقتك هذه عن انه فالتفتت اليه وهي تبكي وتنتحب وتشتكي فارتد قبول على عقبيه وعلامة اليأس بين عينيه وسأل عنها في المينا فأخبروه بسفرها وانها حين نزلت في السفينة قامت بها وان السفينة قطعت نحوا من عشر فراسخ في العـرض حتى غابت عن الارض فرجع الى الدار وهو لا يعلم ثم خرج منها ولم يتكلم قال وكانت الصخرات المحطية بنا تظهر على بعد أنها عمودية البنا مع انها كانت مخللة باسطحة خضراء تقسمها الى مـدرجات أخرى يتوصل بها في الصعود الى أحجار مرصوصة تحت سفح الركن المسمى بالبوصه وكان تحت هـذا الركن عن جانبه أشجار شاهقة محاطة بمهاو تخرقه وكان لا يزال الغمام يأوي الى هـذه المحلات ثم ينحدر غـدرانا في جميع الجهات فتسيل الى بطن الوادي بانحـدار هين وصوت عند السقوط لين ومن جلس هنالك كشف جزأ من الجزيره ورأى جبالا وأجمات كثـيرة ونظر البحر وجزيرة برب على بعد أربعين فرسخا جهة الغرب فصعد قبول على هذا الصخر المرتفع وقعـد في ذلك المـكان المنقطع وصار يتلفت تلفت من أصيب بجنه حتى نظر السفينة التي سافرت فيها وردجنه فـكانت على بعد بعيد وأمد مديد كالنقطة السوداء في المحيط الاكبر أو كالنملة البيضاء في البر الاقفر وبقي طول اليوم يشاهدها وهو يظن بعـد أن غابت أنه يجـدها ومازال جالسا والرياح تعبث به وبالاشجار حتى ولى النهار

قال ولما أن رأيته هنالك قاعدا وعلى تلك الصخرات صاعدا وكان ساندا برأسه على الحجر شاخصا بعينيه الى البحر تبعته وتعبت فيـه حتى نزل وجاء الى أهله ودخل ومذ رأى السـت بدور أقبـل عليها وجعل يتشـكى منها والبها يقول لها

على م بجأتيني وعن سفرها ما أخبرتيني ياليتني كنت ودعتها وعند كريم استودعتها لا كون اليوم بارد القلب قليل الهم والكرب وأكون قد استسمحتها فيما عن غير قصد أسأتها وأكون قد تزودت منها بنظره وبللت غلي من ريقها ولو بقطره وأدعو الله أن يمن عليها بالاسعاد في بعيد البلاد فما أظن أنها تعود وان الدهر بها يجود ولما أن رآى أمه وأمها يبكيان وبأليم القول يعددان قال لهما ابكيا وبهما شامتا انظرا اليوم من يمسح دموعكما ويرأف بحالكما ثم انحنى وبكى وناح من حر الفراق واشتكى

شعر

وصار يجري من هنا الى هنا * مبدد الراحة مفقود المنا

ينظر كلما رآى كأنه * يبحث عن آثار وردجنه

وكلما كان عزيزا عندها * أوسعه زيارة من بعدها

غيره

وقال لمعز بها وكن نظرنه * البكن عنى فالمطايا مطاعمى

رحلن بمن كانت البكن برة * تمد بكفيها لكن المطاعما

ثم دخل معكفها الذى كانت تأوي اليه ونظر الى الطير وقد أقبلت عليه

فقال شعرا

لك الويل ياتلك الحمائم بعدها * فقد أظلمت من وحشتها المواضع

فلا أمطرتك المزن بعد فراقها * ولا عطفت يوما عليك المراضع

ثم نظر الى الكلب وهو يقتص خبرها ويقتفي أثرها فتنفس الصعداء وبكى حتى أبكى البعدا

وقال شعرا

أواه يا كلب فلا تقتفي * مادمت فينا أثرا للحبيب

فانما شطت به داره * ومابقي غير البكى والنحيب

وانى والله من بعـدها * مابين جيرانى وأهلى غريب

ثم جلس على الحجر الذى كان عليه فى الامس وقد كادت تزهق منه النفس ونظر فى البحر الى المكان الذى غابت فيه عن عينيه و بكى بكاء لامزيد عليه

قال وكنا عليـه بالمرصاد فى كل واد خوفا عليه من عواقب طيشه وسوء عيشه ولم تزل الست بدور وأمه يرجوانه أن لا يهيج بلباله بكثرة أشجانه وأن يتسلى من أحزانه سيما الست بدور فانها اتخذت كلمات تقرب الامل وتزين العمل بان قالت له يا ابى يا حبيبى ويا زوج بنتى ونسيبى وجبرته بذلك على أن يدخل وأن يقعد معهم على المائدة ويأكل فلما أن جلس معنا على الطعام لم يهنأ له زاد ولا كلام لان جلوسه كان قريبا من المحل الذى كانت تجلس وردجنة فيه وكان خيالها دائما يقتفيه وهى لم تزل فى مخيلتـه حاضره كأنها اليـه ناظره فصار يجردها من نفسه ويخاطبها ويقدم لها من الاطعمة ما يظن أنه يعجبها ومذ علم أنه فى ضلال وانه يتحدث مع خيال قام من المأدبة حيرانا وأسال من أدمعه طوفانا وفى اليوم الثانى هم بجمع أوانيها ولم الصحاف التى كانت تأكل فيها وما كانت تستعمله من الادوات الخاصتها وتستخدمه على حسب عادتها كباقات من الازهار وأكواب من جوزات الهند الـكبار

وقد نزلت عنده هذه الاشياء بمنزلة الزخائر المصونة والجواهر المكنونه فكان يضمها لصدره ويقبلها وعلى الذهب والفضة يفضلها

شعر

رأى المجنون فى البيداء كلبا * فمد له من الاحسان ذيلا

فـلاموه عليـه وعنفوه * فقال رأيتـه فى حى ليـلى

ثم انه رأى أن كثرة شغفه تعود بالمضرات عـلى الامهات وأن لوازم العيـلة تستدعى كثرة الاشغال وان لا فائدة فى الكسل والاهمال فخرج مع العبد مرجان لاصلاح البستان قال وكان لا يعرف بالعـلوم ولا يدرك المنثور ولا

المنظوم فقصدني أن أعلمه الكتابة فعلمته وأن أفهمه القراءة فأفهمته فعدها مني أحسن منة لقدرته على مراسلة وردجنه وتعلم الجغرافية ليدري بمحل اقامتها وعرف التاريخ ليقف على اخلاق أهل بلدتها وقرأ علم الزراعة وأتقنه فصار لا يرى شيأ في البستان الأحسنه وكان اكتسابه ذلك ببركة العشق والهيام وسر الوجد والغرام فأصل العلم غوايه وسند الحديث روايه ولولا الفقر والاقلال لما كانت الحكم ولا الامثال فانها للهموم مسليه وللانام مواسيه وأن الله تعالى بدأ بخلق الحب وجعل منزله القلب فكان سببا لارتباط الارواح بالذوات وداعيا لاتحاد المعقولات والمنقولات ونثر اللذات ولقد سئمت نفسه علم الجغرافيه لانه رآها غير شافيه ادلا يتكلم فيها على البلاد بالنسبة لاحوالها الطبيعيه بل بالنسبة لقواها السياسيه وانما اختار كتب السير والحكايات ومطالعة القصص والخرافات لما رأى أنه يحكى فيها عن أحوال الامم المارة وما وقع لهم من الامور السارة والضارة فيرى منهم من أصيب بمثل مصيبته ومن أحب حبيبة كحبيبته وكان لا يحب الا الكتاب تلماق لما فيه من وصف الرستاق وذكر محاسن اللذات الحلويه وعيشة الرياض المرضية فكلما استحسن شيأ من تلك الامور كان يقرؤه على أمه وعلى الست بدور وطالما أخذه الطرب من بعض ما يراه فيهيم ويبكي وهو يقراه ولما أن اطلع على الكتب الادبيه والنكات الواقعيه التي هي عبارة عن أخلاق الرعيه خاف على وردجنه أن تفسد أخلاقها فتنساه وأن تصدق ظواهر ماتراه فاشتدت حسراته وتصاعدت زفراته وأنشد شعرا في هذا المعنى

لكنها خلة قد سيط من دمها * فجع وولع واخلاف وتبديل
فلا يغرنك مامنت وماوعدت * ان الاماني والاحلام تضليل
فلا تمسك بالعهد الذي زعمت * الا كما يمسك الماء الغرابيل

قال ولقد مضى لها نحو من سنة ونصف ولم يرد منها حرف ولم يصل لامها منها

ظرف بل بلغها عنها أنها وصلت بالسلامه وانه لم يحصل لها في سفرها أدنى مقامه ثم ورد منها خطاب بخطها ومعه ربطة من ربطها وكان هذا الخطاب يتضمن شرح حالها وما هي عليه عن البعد من أهلها ومع شدة احتراسها في التعبير فقد ظهر منه لامها أنها في غاية من التكدير وها هي صورته بالحرف وصورة عنوان الظرف

أيتها الوالدة العزيزة الخالصة الابريزه قد أرسلت اليك فيما مضى عدة خطابات ولم ترد لي عنها جوابات فظننت أنها أهملت واليك ما وصلت وأملي أن يصل هذا اليك فيقص قصصي عليك وأن يرد رده الى فينشر طيب أخبارك على وبعد فطالما بكيت على فراقنا وكنت لا أبكى الا على مصائب غيرنا أما خالتك فانها عند وصولي اليها ودخولي عليها سألتني عما تعلمته وأى كتاب قرأته وكتبته فقلت لها انى لا أدرى وما قرأت وما كتبت طول عمرى فقالت لى اذا ماذا تعلمتى من يوم ولدت فقلت لها تعلمت أن أخدم العائلة وها أنا على خدمتك مقبله فقالت لى انى ولدت مع المساكين وتربيت مع الخدامين وفى الغد أدخلتنى مدرسة البنات وأحاطتنى بجماعة من المعلمات فأقرؤنى العلوم الاوليه كالنحو والحساب والتاريخ والجغرافيه فلم أكتسب منها شيأ لاشتغالى بكم وعدم التفاتى الى غيركم حتى أشيع عنى أنى من ذوات العقول السخيفه والاذهان الضعيفه وخالتي مع ذلك لم تزل بخيرها تغمرني وبالملبوس الظريف فى كل فصل تسترنى وقد أرفقتنى بامرأتين لخدمتى وغيرت بنسبتها نسبتى وأنت تعلمين ان انتمائى لابى أحب شئ على قلبى اذ لا يخفى ما قاساه والدى من الاهوال وما فعل على زواجك من الافعال واعاجيب الى هذا الاسم الجديد والعلم الفريد لانه كان اسمك فى الشبوبية ولقبك فى زمن البنوتيه ثم انى لما رأيت نفسى فى هذه الخطوه رجوت خالتك أن لا تعاملك بالقسوه وأن ترسل اليك شيأ للاعانة لكنها أضمرت على الخيانة واللعانه فكان جوابها

انك فقيرة يكفيك من العيش ماقل لانه ان زاد قتل ولما لم يمكنى أن أراسلك على يدى أردت مراسلتك على يد غيرى فلم أجد من يؤتمن فى هذا الامر المهم فقمت بدفع هذا الملم وبذلت غاية جهدى وتعلمت القراءة والكتابة وحدى ولقد أعاننى الله عليهما فى أقرب مده وأقصر عده وكان ارسال كتبى الاولى على يد نسوتى فلاشك انهن أعطينها لخالتى فعمدت الى صاحبة من بنات الكتاب ورجوتها أن ترسل اليك هذا الكتاب فارسلى على اسمها ردا لجواب فان خالتى منعتنى من الخطابات الخارجية خوفا على من بعض العواقب الرديه وحكمت على أن لا ينظرنى فى المدرسة غيرها وغير رجل عجوز من أنصارها وقالت لى انه يهوانى ويميل الى ويتمنانى وأقول الحق انى لم يكن لى أدنى ميل اليه حتى لو سلم على لما رددت عليه وها أنا يا أماه فى عيش من يرفل فى أذيال السعه ولم يجد فلسا معه فانهم قالوا ان حلى الدراهم يؤدى الى أمور ذميمه ويؤول أمره الى عواقب وخيمه وأما ماعلى من الملبوس فهو للنساء اللاتى فى خدمتى وربما تقاتلن عليه وهو على جثتى فصرت مع ماأنا عليه من الثروة هنا أفقر مما كنت عليه فى بيتنا الا انى لا أجد درهما للنفقة ولا شيأ للصدقة ولما رأيت ان هذه المعارف الجمة والتعليمات العظيمة لا تؤدى الى كسب القليل ولا تورث ما يروى الغليل عولت على الخياطة التى اكتسبتها منك ورويت حديثها عنك فهاك جملة من الجورب من عملى لك ولاقحوان ومنديل لمريم وطربوش لمرجان ودونك بعض ألباب وأبزار من فضلات الفاكهة التى تقدم لى فى الافطار وحبوب كنت جمعتها وقت الفسحة من البستان وبعض من أبزار البنفسج والاقحوان وكم هنا من أزهار أجل من أزهارنا لم يكن لها عندهم بها اعتنا فلاشك انك والست اقحوان من كيس تلك الابزار تنشرحان وانه يسركما أكثر من كيس الدراهم الذى هو سبب الفرقة وأصل لما أنا فيه من الحرقة وما أحسن ما يبلغنى عن شجر التفاح وانه نشر ظله على زهر الاقاح وانسجم مع الجوزات الهندية

فاذكرك ما تألفينه في البلاد المغربيه هذا وقد أوصيتيني ان أشرح لك أحوالي وأفصح عن الخير والشر مما جرى لي فأما الخير فلا خير لي مادمت عنك بعيده وأما الشر فأدسلي عنه باتباع نصيحتك المفيدة فانك أرسلتيني في هذا المحل على ما أراد الله عز وجل

شعر

وأكبر أحزاني وجودي بمعشر * اذا ذكروا شيأ تحاشوا ادكاركم
وان قلت شيأ عنكم يمنعونني * كأنهم يستنكفون جواركم

وحقيقة ان خادماتي اذا تسامرت معهن وورد شيء من ذكركم عليهن يقلن لي تذكري ياستاه انك من بنات الاشراف فلا تذكري شيأ من كلام الارياف وما علمن اني أنسى نفسي ولا أنسى دار هنائي وأنسي ومسقط رأسي وأن البلد الذي أنا فيها هو الجدير بالنسيان فاني لم أر به انسان ولا من أشركه في أمري وأحدثه عن حبكم الذي لا يفارقني طول عمري هذا وأسألك المبرة الكثيرة بمرجان ومريم كما ربياني صغيرة وان تحسني مثوى الكاب امان فانه لقيني وأنا ضالة في البستان فتعجب قبول غاية العجب من انه لم يذكر بشيء في هذا الكتاب وقد ذكر الكاب ولم يعلم ان كتب النساء وان طالت منها القافية لم يذكرن أعز ما عندهن الا في الحاشية وحقيقة انها أوصت له في حاشية الكتاب ببعض حبوب من البنفسج و بعض من أبزار العوسج وأرشدته على كيفية غرسها وعلى البقعة التي تصلح لها ثم قالت

شعرا

زهر البنفسج كالمحب المدنف * تلقاه في أوراقه بالمختفي
لكن روائحه الذكية ان نمت * نمت عليه لكل واش مقتفي

ثم أوصته كل الوصية أن يغرسه حول الفسقيه وقالت على العوسج انه غريب الاوصاف أسود الجوف أزرق الاطراف وأوصته أن يغرسه عند الحجر الذي كانا عليه ليلة السفر وان يسميه بحجر الوداع وآخر الاجتماع وكان

هذا البزر فى كيس صغير الحجم ساذجى الرسم فنزل عند قبول بمنزلة العقد الفريد والطلع النضيد سيما وقد رأى عليه نقش حرفين معتنقين وهما مبدأ كل من الاسمين وانها نقشتهما بنفسها وطرزتهما من شعر رأسها فان كنت تدرى فى التجيم فهما قاف وجيم

﴿ القاف لقبول والجيم لوردجنه ﴾

قال الناقل فاقرأ كتاب تلك العذرى الاوسال دمع العائلتين وجرى فسطرت لها أمها كتابا غيره وذكرت لها ان الجميع عليها فى حيره ومسحت أحرفه من الدموع وفرط الزفرات والولوع وقالت

شعرا

أقمى كيف شئت بغير بعد * فانى من غيابك فى شقاء

وانى لم أزل مذ غبت عنى * مقسمة الفؤاد على اللقاء

ثم كتب لها قبول كتابا طويلا رتبه ترتيبا ورتله ترتيلا وذكر لها انه مشتغل وغرس ما أرسلت وانه سيجعله على حسب ما فصلت وانه يؤلف فيه بين نبات أوربا وأفريقيه كانها ألفت بين اسميهما بالأحرف التعليقيه وأرسل لها من ثمر جوز الفسقيه مما بلغ الانتهاء فى النضوجيه وانه لم يرسل اليها شيأ من أزهار الجزيره لتأخذها الى المجىء غيره ثم تضرع وابتهل وسألها المجىء على عجل فقال

شعرا

أرجوك أن تعجلى الحضورا * لتغنمى فى أهلك الاجورا

عودى الينا وارحمى متيما * لم يرقط بعدك السرورا

ثم اهتم بعد ذلك غاية الاهتمام وغرس الابزار على التمام فكان زهر البنفسج والليلاب يشبه حالة وردجنه فى الغياب ووجه الشبه ان أزهارها كانت تتوارى فى الأوراق ولا تكاد تظهر على الاطلاق ولسبب تلف أبزارها فى مدة السفر ولان هوا القطر عليها تغير جاء زهرها قليلا ونباتها عليلا

و بعد فالحسد الذى هو نقيض السعادة وأغلب قبائل الجزائر قد اعتاده ترتب عليه انتشار أقوال يبنى عليها تعب قبول وذلك ان أهل المركب التى وردفيها خطاب ورد جنه زادوا فى اللجاج وأشاعوا القول بانها مشرفة على الزواج حتى انهم ذكروا اسم بعلها وقالوا انها من أهله وانه من أهلها وقال بعض من يأتفك ان هذا الزوج لمن بيت الملك وقال البعض انها تزوجت وبالفعل دخلت وأثبتوا ذلك دون مين وقالوا انهم رأوه بالعين فاصدقهم قبول فى أول الأمر محتجا بان مراكب التجار تحمل الكذب كما تحمل التمر لكنه لما سمع ذلك من بعض المترددين عليه الذين يرجعون فى أغلب أمورهم اليه وان غاب يسألون عنه وهم فى الواقع يسخرون منه صدق مقالتهم واستصوب عبارتهم سيما وانه قرأ فى بعض الخرافات أو أكثر السير المؤلفات ان كيد النساء لا يخفى وان الرجال منهم على شفا وان أول الهوى مزاح وان الفساد يعترى الصلاح وان ما يكتب من ذلك فى الأوراق ليس الا عبارة عن الاخلاق خاف على ورد جنه وهى وحدها ان تكون قد نقضت عهدها فانكسف باله وزاد بلباله وتشوق كل التشوق اليها وندم كل الندم عليها سيما وقد ورد كثير من السفن من بلدها ولم يلق فيها كتابا جاء من عندها

قال وكان هذا المسكين من شدة اضطرابه وفرط عذابه يكثر التردد على ويأتى فى أغلب الأوقات الى ليعلم منى هل صحيح ما يشاع أم هو من باب الكذب والاختراع وكان منزلى كما ذكرت على بعد ميلين من هذا المكان على شاطىء غدير من الغدران وهنالك قضيت عمرى مشتغلا من الناس بأمرى لا خادم لى ولا عبد ولا امرأة لى ولا ولد لأن الرجل اذا فاتته امرأة فى الاخلاق حسنى وهى نادرة من نوادر الدنيا وشكى من الناس ومعاشرتهم وتمرض من سوء مجاورتهم وجب عليه أن يسعى فى العزلة عنهم وان يجتهد فى الفرار منهم ومن المشاهدان الذين ساء حالهم اما من رأيهم أو من جور حكامهم نفر كثير منهم الى الوحده وبدل

بالراحة الشده كقدماء المصريين فى زمن انحطاطهم وكاليونان فى آخر ملكهم وكالهنود وأهل الصين وكمتأخرى الأروام والطليانين وكاغلب الامم المشرقيه وكاهل أوربا الجنوبيه والعزلة تسوق الرجل الى السعادة الخالصه وتبعده عن الجمعيات المنغصه فاجتماع العالم لا يخلو عن أمور بارده وأوهام فاسده فتكون النفس دائما فى اضطراب من آراء غير سديده واشتغالات ليست بمفيده ولا يخفى مادة الطمع المتسلط على ابن آدم فى جمعياته وان الاخ يقتل أخاه فى حاجاته أما العزلة فليس فيها شئ من تصورات هذا الطيش التى هى سبب فى تكدير العيش بل تشتغل كل نفس بمنافعها وتتفكر فى الطبيعة وصانعها كسيل تحرق الارض وقت سقوطه وخرب الروض عند هبوطه ثم انحدر فى محنية منعكفه فرسب ما فيه من الاتربه المنقذفه ولما خف قوامه وشف قوامه صفى بعد التكدير وراق بعد التعكير وعكس أشعته على ماحوله من النبات الاخضر والسماء الأنور وهكذا العزلة تنظم الارواح كما تنظم الاشباح ولقد رأينا طول المده فى أعمار أهل الوحده وذلك مثبوت مشهود عن براهمة الهنود ونهاية الأمر فهى على مذهبى أصل فى السعادة البشريه لان المرء اذا لم يتخذ لنفسه شيأ منها فى أموره الداخليه ليكون عاريا عن الآراء الاجنبيه استحال عليه أن يتلذذ بشئ لا محاله أو يستقيم فى عيشته على أى حاله هذا وليس القصد ان ينفرد الرجل بنفسه وأن يهجر بقية أبناء جنسه فقد غالت الامثال وصدق من قال شعرا

العز فى العزلة لكنه * لا بد للناس من الناس

وذلك للزوم الضروريات وارتباط الناس ببعضهم فى الحاجات فان حاجات المرء تحوجه للغير كما يحتاج الى الحب الطير ثم بقى معيشته على مولاه الذى صوره وأنشاه وقرن بالعناصر أعضاه فخلق الرجلين ليمشى بهما وخلق الارض والتراب لهما وقرن تنفس الرئتين بالهوا وخلق العينين للنور

والاضوا وجعل كل شئ للآخر قرينا مطابقا والفا موافقا ثم خلق الروح من أمره فترى المخلوق يردها اليه بعد انقضاء عمره

فمن ثم التزمت ان أعيش عن الناس بعيدا منفردا وحيدا فانى كنت خدمتهم فى سائر البلدان واتخذت منهم أصحابا فى كل مكان وما تركت قسما من أقسام الارض الا سكنته ولا رجلا الا اختبرته وامتحنته حتى علمت ان لا أحد منهم يعول عليه ولا يلتجأ فى الامور اليه فاخترت هذه الجزيرة لقلة سكانها واعتدال الهوا فى جميع أركانها ولبعدها عن موارد العالم الاكبر وخروجها من دائرة المحشر وبنيت لى صومعة فى الغابه تحت شجرة مستطابه وأفلحت قطعة من الارض وحدى وبذلت فيها غاية جهدى فكان فيها وفى النهر كفاية لحاجاتى ونهاية لتمتعاتى وصفت على ذلك بعضا من الكتب المهذبة للاخلاق المسلية لهموم الدنيا بالاتفاق شعر

فصرت بها استخدم الناس بعدما * وردت زمانا ماءهم ثم عفته
وما سبب الهجران الا لاننى * أطلت اصطحابى بالورى وعرفته

وطالما قرأت فى تلك الكتب أوصاف أناس دأبهم الشهوات والانهماك فى اللذات فأقيس نفسى بهم وأمثل عيشى بعيشهم فأرانى على حرمانى منها أرغدهم عيشا وأقلهم زيفا وطيشا فكنت كمن نجى من الغرق فى مركب انكسر بعدما انخرق وألقى به البحر على صخرة عاليه فأمن من كل داهيه وبقى عليها ينظر الى غيره يختبط البحر وهو على غاية من الخطر ولما انقطعت عن الناس وانقطعوا عنى وصرت لا أدنو منهم ولا يدنون منى أصبحت أرثى لحالهم وأتشوق لخيالهم فما قابلنى مسكين الا كنت فى معونته ولا رأيت جائعا الا قمت بمؤنته ولم أر فى طريقى الا كل مؤدب أو حسن الاخلاق مهذب وكم عثرت بكثير ممن أعمتهم الآمال الدنيويه وغرتهم الامانى الخياليه يجردون من العزلة ما يوافق لذاتهم ويلائم شهواتهم ثم يتهمون أنفسهم بأنها أضاتهم وفى

مهاوى الغرور أوقعتهم وطالما هممت بتصبيب العزلة لآخرين من بعض الفقراء والمساكين فلم أر الامن أعماه هوى طيشه وأصماه حب عيشه فكانوا يصغون لما أقول أولا طامعين ان يحصلوا منه ملا ونبلا فاذا رأوا ان سعيي بضد مأمولهم ارتدوا على أصولهم ولاموني على عدم اتباعهم

ولست بنظار الى جانب الغنى * اذا كانت العلياء فى جانب الفقر

وطالما عنفونى على انفرادى و بذلوا غاية جهدهم فى ارتدادى زعما بانى أكون معهم أنفع للناس وأقرب للاستئناس

شعر

وماعلموا أنى اذا ملت مرة * لهذا وهذا لم أجد صاحبا عندى
ولم أر فى غيرى رجاء ولا وفا * فافردت نفسى ثم عشت بها وحدى

وكنت وأنا فى هذه الحالة الهنية والعيشة المرضية أمثل لنفسى جميع التقلبات التى مضت والعلاقات التى مرت وانقضت كتداخلى عند أهل الثروة والأمره وتعلقى باللذات والشهره والتشبث بالآراء المختلطه وتمسكى بالاقوال المختبطه فأرى مثل كثير ممن يقتتلون عليها ويسعون بجهدهم اليها كمثل أمواج البحر تزاحمت وعلت فوق بعضها وتراكمت فاذا أتت للبر تلاشت وتصرمت

شعر

فسلمت جسمى بآثاره * لنهر الليالى وتياره
فلابد ينصب بى فى محيط * أحاط الانام باقطاره
وجردت نفسى عن غيها * تجرد محتقر كاره
وقمت أشاهد صنع الاله * وأنظر فى حكم أقداره
وغادرت دارى فى حب أن * أرى نعم الله فى داره

قال ولم تكن صومعتى فى مكان ترى منه عجائب المخلوقات التى ترفع قدر التصورات فتنفذ من العالم السفلى وتصعد الى العالم العلوى بل لوضاعتها

عندي وعلو أفكاري كنت أنظر فيما صنع الباري وأجول بفكري في أمور غير ظاهرة فاري من مخيلتي أشياء باهرة

وأما وصف البقعه التي كانت فيها الصومعه فذلك ان النهر كان يسلك أمامي على خط مستقيم فيرسم خلجانا ظلالا بالشجر الجسيم وكان الشجر متفاوتا في الساق متباينا في الاوراق كالشنبر والزيزفون واللج والزيتون وغيرها من ذوات السوق المرتفعه والعسيبات المتنوعة كأنها بستان من فوق بستان أو ريحان غرس فوق رمان وكم من روائح أزهار تخرج من تلك الاشجار ان مر بها أحد علقت بلباسه أو خطر عليها النسيم عطرت ذكي أنفاسه فاذا كان فصل الربيع رأيت الارض مروجا ونظرت الى أبيض أزهارها فحسبته ثلوجا وان جاء فصل الشتاء أقبلت عليك طيور شتى وباهت بريشها أوراق الشجر وكادان لايحصرها النظر فمن بغبغانات تتكلم وحمائم تترنم وعنادل تهدر وشحارير تزمر أما القردة فناهيك باسرابها وداعيك الى الفرجة على ألعابها فانها تارة تتعلق بالغصون وتعبث كما يعبث المجنون وتارة تتعلق باذنابها في الفروع وتتدلى في الهوى بغير وقوع وتنقل صغارها من شجرة الى شجرة بالخمسة والستة والعشره في أمن من الصياد وحبائله وبني آدم ورذائله

ولاتسمع هنالك غير أصوات الطيور وألحان البلبل والشحرور أو أصدائها تنعكس على بعد في الغابات فتعيد أحسن ما يكون في النغمات أوخرير جدول يقع على الصخرات فيتكسر بين بعض الشلالات حتى اذا نزل في الوادي صار كالمرآه وأظهر في وجهه وجه من رآه ومن كثرة صفائه ورقة مائه لايزال النسيم يبل فيه أدياله ويمر بها على الحر فيقطع أوصاله وينشر الخضرة في كل محل ولو على رأس الجبل وهنالك صخرة فريدة وعن أصوات المياه بعيده اذا جلست عليها كشفت لك عن هذا المنظر البهي فتسمع ماتحب

وترى ماتشتهى
قال وكذا اذا اشتد الحر ويبس الجو واقفر ذهبنا عند الشجرة المذكورة وتغدينا هنالك على أحسن صوره وكانت وردجنة من طيبتها اذا أكلت ثمرة حفظت بزرها وغرستها وقالت ان أصل الاشجار أبزار ولابد أن يأكل من هذى طير أورجل مار فاتفق لها يوما وهى عندى أن أكلت ثمرة من ثمر القاون الهندى وبعد أن أكلتها غرست كل الابزار فنبتت بعد ذلك منها عدة أشجار وكان من جملتهم شجرة من ذوات الاثمار ولما سافرت وردجنة كان ارتفاع تلك الشجرة قدر ذراع فمضى عليها ستتان الاوصارت تبلغ عشرين قدما فى الارتفاع ثم أخرجت ثمرا كثيرا صغيرا منه وكبيرا فمر فيول ذات يوم فرأى شجرة منهن كبيرة قد طلعت من بزرة صغيرة وهو يعلم أن حبيبته هى التى زرعتها يوم أكلت الثمرة وغرست بزرتها فحزن على أنها غابت حتى صارت الابزار اشجارا وخلفت الاشجار أثمارا وفى الواقع أن الاشجار التى نراها كل يوم لانشعر منها بسرعة ماعبر من أعمارنا ولانعلم ونحن معها كم مضى من أيامنا أما التى نغيب عنها ثم نرجع لها بغتة نعلم من نموها مامضى من أيامنا البتة وكذلك من غاب عن وطنه فرجع فلم يجد أحدا من أنداده بل رأى أولاده أو أولاد أولاده علم بقدر مامضى من عمره وصار عندها متحيرا فى أمره ومن ثم تنبه فيول لطول غياب غرسه من كثرة نمو هذا الشجر بعد غرسه فصار تارة يميل الى قلعه لان وردجنة غابت من يوم زرعه وتارة يراه أثرا من آثار خيراتها وعلامة ظاهرة على مبراتها فيحن اليها ويعطف عليها وينشدها

شعرا

أيارعاك الله ياذى الشجره * ياليت منك فى جنانا عشره
انك عندى أشرف الآثار * وأحسن النبات والاشجار
فلا لقاك الدهر يوما الا * حياك أهلا ومكانا سهلا

ودمت كالحلى على النبات * فأنت غرس أشرف البنات

قال وكنت بعدها اذا بحثت عن قبول ولم أره وجدته دون شك تحت هذه الشجره واتفق ان رأيته ملقيا تحتها يوما مملوأ هما وغما فعقدت معه محاورة يطول شرحها ويحلو صرحها غير أنى أرجو على كبرسنى أن يغفرلى هذا التطويل الذى حصل منى فانى كثير الاشواق قريب من الدنيا للفراق وقد رتبت تلك المحاورة على السؤال والجواب وجعلتها كبقية هذا الكتاب فى سلامة من الذوق وكثرة الآداب

وذلك انه قال لى

انى لأتجرع مرارة البين فان وردجنة قد سافرت منذ سنتين وشهرين ولها ثمانية أشهر لم يرد عنها خبر وما وقفت لها على أثر ولا يخفى أنها غنيـة وأنا فقير فلاشك انها نسيتنى من باب التحقير فها أنا قد عزمت على السفر الى الجزائر لادخل فى خدمة أحد الاكابر وأجتهد حتى أغتنى مثلها لاجل أن خالتها تزوجنى بها لانى أكون قد صرت أميرا وملكت مالا كثيرا

فقلت له

يا أخا العرب ألم تقل لى انك لا حسب لك ولا نسب

فقال لى

نعم لكنى لا أدرى ما الحسب وما كيفيـة النسب انى ما رأيتنى أقل الناس حسبا ولا رأيتهم أكثر منى نسبا

فقلت له

ان لم يكن لك ذلك فلا تصل فى الدولة الى خدمه ولا تصير من أهل الشرف والكلمه

فقال لى

ألم تقل لى ان فى الجزائر يصل الانسان الى أعلى الدرجات وذكرت لى كثيرا

ممن حصلوا الخيرات وظهر وابالمظاهر بعد ان لم يكونوا شيئا واشتهر أمرهم وكانوا قبل ذلك نسيا منسيا وأراك الآن توجب شكواى وضعف قواى

فقلت له

نعم قلت لك عما سبق فى غابر الازمان ولقد تغيرت الاحوال الآن فصار كل شئ يباع بأثمان واختصت المزايا الجليله ببعض عائلات قليله حتى حصروا الخير بينهم ولم يمتعوا به غيرهم وصار الملك كالشمس وهم حوله كالسحاب حتى توارت بالحجاب فمن المستحيل أن يحصل لك شعاع من أشعته أو تلحظك عين عنايته واعلم ياولدى انه مرت أيام أحسن من هذه الايام كانت بها أشعة الملك تصل الى الرعية على الدوام فتقدمت فيها المعارف وانتشرت العلوم وانتصف من الظالم للمظلوم كالارض الجيدة ان أفلحت أجادت وعلى سائر النباتات بعصارتها جادت لكن مثل هؤلاء الملوك الا كابر لا يوجد الا فى النادر وأما العامة منهم فانهم يسلمون الامر لمن حولهم

فقال لى

وما أدراك لعلى أجد أميرا يحمانى على كتفه ويدخلنى تحت كنفه

فقلت له

ان رمت الحماية عند الامرا أو الدخول فى كنف الوزرا فلا بد لك من السعى فى مرضاتهم وارتكاب مايشفى غليل لذاتهم وأنت لا تصلح لذلك أبدا ولا تقدر أن توافق منهم أحدا لانك رحيم رؤف كريم النفس عفوف

فقال لى

انى بصدقى وأمانتى وحسن سلوكى فى تأدية خدمتى لأسعى أن يتخذنى بعض الامراء خادما أو أكون له منادما وهذا فى تاريخ الافهمين رأيته وعليك قريته وعنك رويته

فقلت له

الشكات وأما الفقراء فبخلاف ذلك وفي بعد عما هنالك اذا نالهم سرور وسط شرور كان كالوردة بين الشوك الكثير فهم منه يتلذذون أكثر مما هم منه يتأذون لان الطيب يحلو عند وجود ضده كما ان حرارة اليوم تؤلف عند برده ذلك حكمة الحكيم وتقدير العزيز العليم ففي أي الحالين ترغب وعلى أي جنب تريد أن تتقلب فالاولى حالة الامراء والاخرى حالة الفقراء وهاتان الحالتان لا يرضاهما قط من مال بالطبع الى المروءة والعيش الوسط

فقال لي

أفدني بلغت المنا ما معنى المروءة هنا

فقلت له

المروءة هي أن يكد المرء نفسه لفعل الخير وأن يقصد بذلك وجه الله لا غير وأنت كادلنفسك في يومك وأمسك وباذل غاية جهدك في اطعام أهلك من كدك فلست تحتاج لمعرفة المروه لانك معدن الكرم والفتوه

فقال لي

ما أكثر مروة وردجنه فانها تتطلب الغنى حبا في فعل الخيرات وشوقا لبذل المبرات فستعود لنا ان شاء الله سالمه وترجع برونها غانمه

ثم مازالت فكرته تهتف بعودتها وأعينه تترامى على رؤيتها حتى زال عنه ما به من الحيره وتقشعت عنه سحائب الغيره وكانت وردجنه لم تكتب له كتابا ولم ترد له جوابا لانها كانت مشرفة على القدوم مستبشرة بان الفراق لا يدوم وكان لا يلزم طويل زمن لوصولها اذا ساعدها الهوا وجاء على وفق ما تهوى فكان قبول يحسب سير السفن ويقول ان سفن التجارة الصغيرة اذا شرعت في المسير تقطع أربعة آلاف فرسخ في أقل من ستة شهور وأما سفينتها فتقطعها في شهرين أو في شهر وأسبوعين لانها في غاية الخفة والصلابه وملاحيها في أعلى درجة من النجابة ثم أخذ يتحدث فيما يلزم لملاقاتها وما يلزم

أن يبني من البيوت لها وصار يسلي نفسه بوصالها ويتلذذ مقدما عاسيراه عندزواجه بها وكلما خطر بباله انها تصير امرأته ارتعدت فرائسه واضطربت ودنت ساعته واقتربت وقال لي يا أبتي لابد أن نصنع معك ما أنت أهله من الاحسان فان وردجنة قد صارت من أغنياء هذا الزمان فلابد أن نشتري لك كثيرا من العبيد يفلحون لك أرض هذا البرية وتقضي العيش معنا في انشراح ولا تتفكر الا في تجديد الافراح ثم يأخذه الطرب من ذلك فيذهب الى الست بدور ويخبرها عاقام به من السرور وما مضى الازمن يسير حتى تغير حاله وانقلبت أفكاره وآماله وذلك لان تراكم الافراح يعقب الحزن والمرء لازال ينقلب بتقلب الزمن واقد سمعته يقول ان وردجنة قطعت كتبها عني وعزمت على عدم القرب مني لانها لو كانت سافرت من الجزائر لكانت أرسلت لنا البشائر ان الذي قيل عنها لابد قد جرى وان خالتها قد زوجتها باحد الامرا ولا شك أن حب الغنى أصماها وعن أعماها وما الكتب التي تمدح البنات الا من بعض الخرافات لانها لو كان عندها أثر المروة لما تركتني وتركت أمها أما علمت اني آسف عليها مشغول بها حتى تشتغل عني باللذات وتلهو باتباع المسرات لقد سئمت والله نفسي الاشغال وكرهت النساء والرجال اللهم أثر نار الحرب في الهند فأذهب اليه وألقي بنفسي عليه لاقع بينهم جريحا أو أموت فأستريحا فقلت له ان الشجاعة المؤدية للموت هذه همة وقتية حركها فينا اغراء الرجال الرديه على ان فينا شجاعة أعظم من تلك وأحزم وبها نتحمل من هذه المعيشة ماهو أهم وهي الصبر مفتاح الفرج زكي العرف والارج لايتوقف على نصيحة ناصح ولا يؤخذ من قول ماتن أو شارح

شعر

الصبر مثل اسمه مر مذاقته * لكن عواقبه أحلى من العسل

ومن لم يصبر على المصيبه ويجلد على فراق حبيب أوحبيبه فذلك فاقد للاخوه وعادم للانسانية والمروه

فصاح متأوها وأشار منوها

صدقت فانى لامروءة عندى ولو بذلت فى تحصيلها جهدى فانى عدمت الصبر بين الناس وأوقعت نفسى فى حالة اليأس

فقلت له

اعلم ياولدى أن الصبر اسم انتشر لاوجود له فى البشر ولايطيقه الا الانبياء أوالاولياء وانا اذا دهمتنا المصائب وكرت علينا النوائب وذهل العقل منا وولت أفضل المآثر عنا لانرى غير الآداب والحكم نزيل بها الهم والغم وهى منة من الله بها على العباد ونشرها فى كل واد فهى كالشمس تضئ وتدفى وتزيل الهم وتنفى وبها تقرب لنا الاشياء وتنتظم أحوال الدنيا تستعين بها النفوس على الحسنات وتهزم جيوش السيآت وتحرض على اتباع الفضيله وتضرب الامثال لاجتناب الرذيله ولقد كانت تلك الآداب والحكم من السماء فى أعلى الآفاق فأراد الله نزولها على الارض لتهذيب الاخلاق فنزلت وصارت تسلية فى الخطوب وتفريجا للكروب وان مشاهير الرجال الأدباء وأهل هذا الفضل النجباء كان ظهورهم فى أعصار مكربه وأخلاق غير مؤدبه فابدعوا فى المنثور والمنظوم وفرجوا هم كل مهموم وكم أكثر منك هما سلوه وأعظم كربا فرجوا عنه وهنوه فاقرأ ياولدى هذه الكتب الطيبه فان الحكماء الذين ألفوها كانوا أهل تجربه سبقونا فى طريق النوائب ومدوا أيديهم بالكتب الينا ونحن فى أعز المصائب فبأقوالهم نتسلى وبفضائلهم نتحلى

شعر

ومن لم يجد فى الناس خلا موافقا ٭ يبدله فى أيامه بكتاب

فقال قبول أواه لوأن وردجنة معى لما كنت بقارى كأنها لم تكن تقرأ لو

كانت بجوارى فانها حين كانت تنظر الى وتتردد بمحبتها على كان من المحال على أن أغتم أو أتنغص من شئ أو أهتم

فقلت له ان حب المرأة للرجل سعادة أبديه وعيشة راضية مرضيه فان لها مداعبة لطيفه ومؤانسة ظريفه تزيل مابالرجل من الحزن وتعينه على صروف الزمن وكأن وجهها مغناطيس الانس ونفحة من نفحات القدس تورث الرجل سرورا وتزيل عنه عبوسا وشرورا فابشر ياولدى بقدوم وردجنة عن قريب ولابد أن لك فيها نصيب وأنها ستعود سالمة غانمه بالغة رشدها متعلمه وستعجب منك على اهمالك فى البستان وتعاتبك على ماتراه فيه من النقصان لانها على طول غربتها وتضررها من عذاب خالتها وبعدها عنك وعن أمها لايزال حب البستان نصب عينها

قال فحدث فى قبول تصور رجوع وردجنه فازداد قوة وفطنه ورجع الى عمله فى الفلاحه وألبس البستان ثوب ملاحه وصار يخترع فيه من فنونه وينظمه بقوة عشقه وشجونه

فلما كانت صبيحة الرابع والعشرين من شهر تشرين رأى فوليبيرقا على حصن المدينه وكان هذا دليلا على قدوم سفينه فمضى الى المدينة ليقف على الاثر ويسأل هل وردمن وردجنة كتاب أو خبر وانتظر رجوع رئيس الليمان بالافاده لانه كان قد خرج للسفينة على حسب العاده ولما أن رجع الى حاكم البلد ودخل عليه دنامنه ووقف بين يديه وأخبره بأن هذه المركب تسمى بالغراب قد أقبلت من الجزائر مع كثير من الركاب وحمولتها سبعمائة طنولانه تحت رئاسة القبودان شصاته وانها بعيدة عن الارض بقدر أربعة فراسخ فى العرض وانها لاندخل المينا الا فى الغد بعد الزوال اذا كان الهواء فى غاية الاعتدال ومع ذلك فلم يكن الهواء مساعدا ولا الجو طيبا أبدا ثم أعطاه ماورد من الاوراق برمتها فكان فيهم خطاب للست بدور من ابنتها

فاختطفه قبول لوقته وطار به الى بيته ولما نظر أهله ينتظرونه على حضرة الوداع رفع الخطاب فى الهواء كالشراع وأشار به على البعد وهو مبكم لا يقدر من فرحه أن يتكلم

قال فحضرت الجيران عند الست بدور ليسمعوا هذا المسطور فكان فيه ان خالها جرعها أنواع العذاب ونغصت عليها الطعام والشراب وأرادت أن تزوجها بالرغم عنها وأحرمتها عن ارثها وتبرأت منها وأرسلتها فى فصل الشتاء لاهلها وما سألت عما عساه أن يحصل من البحر لها وانها كلما طلبت منها شيأ لامها عبست وادعت أنها أفلست ونهرتها وسبتها والى الجنون نسبتها

ثم ختمت وردجنة كتابها بذكر ما قاسته من الشوق وما نابها وانها حضرت لبلدها ومسقط رأسها وهى على ظهر البحر رهينة تنظر على البعد الى المدينه ولولا ان قبودان المركب منعها من النزول حين جاء رئيس الليمان على صندله مجول لكانت نزلت فيه لقبول ولكنه احتج لها بان البحر كان عاليا وأن موجه كان متواليا

قال فانتهت قراءته هذا الخطاب حتى ابتسم كل من سمع وطاب وهللوا وصفقوا ومن رؤية وردجنة أشفقوا واتفقوا فى الغد على مقابلتها وهنوا أنفسهم بسلامتها فقالت الست بدور لقبول أخبر جارنا بقدوم وردجنة هنا فأوقد مرجان شعلة من الخشب وأبى هو وقبول عندى وهما فى غاية من الطرب وكان ذلك بعد العشاء بساعه وقد هجعت الجماعة وكنت طفيت قنديلى وعصبت رأسى بمنديلى وتهيئت للنوم شاكرا الله على سلامتى فى هذا اليوم وما أشعر الا ونور ظهر من بعض طيقان المنزل ثم سمعت صوت قبول وهو مقبل ولما نادانى قمت اليه ولبست ثيابى وخرجت عليه فعانقنى وهو فى غاية الفرح وصدره قد انشرح وقال لى قم بنا فان وردجنة جاءت هنا وانها اذا ساعدتها الرياح دخلت مركبها المينا على الصباح فقصدنا المينا من طريق الغابه

ونحن فى غاية القوة والصلابه وبينا نحن فى سيرنا واذا برجل يمشى من خلفنا فوقفنا له حتى دنا فسألناه عن حقيقة أمره ولأى شئ يسرع فى سيره فقال وهو فى غاية الحيره انه من عبيد هذه الجزيره وانه جاء يخبر الحاكم بمركب أتت تحت جزيرة العنبر تضرب المدافع طلبا للاعانة على خطر البحر فانه كبر عليها وأتعبها ويخشى منه أن يركبها ثم استمر العبد فى طريقه وهو من شدة سيره يكاد أن يشرق بريقه

فقلت حينئذ لقبول سر بنا لارض الذهب فان السير بالليل يستحب وهى كائنة جهة الشمال وليس بيننا وبينها الا بعض أميال فسرنا وكانت ليلة شديدة الحر وكان فى الجو ثلاث هالات حول القمر وكان السحاب كثيفا والبرق عنيفا ظلمات بعضها فوق بعض منتشرة حول الجزيرة بالطول والعرض ثم تخيلنا صوت الرعد وحققنا أنها أصوات مدافع من بعد فدخلنى الرعب من صوت المدافع واقشعر جسدى من نازلة ليس لها من دون الله دافع وثبت عندى أنها علامة الغرق وان المركب معرضة للغرق ثم سكت صوت المدافع وانقطع فكان سكوتها أشد خوفا وفزع

وتقدمنا فى السير ولم ينطق أحدنا بكلمة أو يقول لصاحبه عن الخوف الذى كتمه فلما وصلنا نصف الليل الى ساحل أرض الذهب رأينا البحر هنالك قد اضطرب وتدحرجت أمواجه على الصخرات وقذفت زبدها من جميع الجهات ولكثرة لمعان فسفورها وما كان يتطاير من نورها رأينا قلائل الصيادين على البر مسحوبه منها المعدولة ومنها المقلوبه ورأينا على البعد من مدخل الغابة شعلة من النيران حولها كثير من السكان فجلسنا هنالك للاستراحه الى أن ينشر الليل صباحه ويبدى الديك صياحه وبينا نحن قاعدون ولكلام من حضر سامعون واذا برجل منهم يقول وهو ينظر لى ولقبول انه رأى بعد الظهر مركبا على بعد عشرة أميال من الثغر حملتها قوة

التيار الى الجزيره وما أخفاها عن أعينهم الا ظلمة الليل الغزيره وانه سمعها بعد الغروب بساعتين تضرب مدفعين بعد مدفعين فعلم انها تطلب المعونة وتريد المساعده الا أن البحر كان هائجا فما أمكن أن يرسلوا الاعانة اليها حوائجا وترآى لهم أنهم اسرجوها أوقدوا ورفعوا أعلام الاستغاثة وشيدوا وانها ربما دخلت بين البر وبين جزيرة العنبر ظنا بان هذه الجزيرة تأوى اليها السفن المستجيره وانه ان صح ذلك فهى فى كرب عظيم وخطب جسيم وقال رجل آخر انه كثيرا ما مر فى الخليج الكائن بين جزيرة العنبر والساحل وانه جس مائه فوجده للاستقبال قابل وان المركب فيه تكون فيه فى أمن أمين وحصن حصين وانه لو ملئ مركب ذهبا لأمن عليه فى هذا المكان ونام وقلبه فى غاية الاطمئنان فقال ثالث انه يستحيل دخول المركب فى هذه الجزيره فان ماءها لا يقبل الا السفن الصغيره وذكر أنه رآها خارجا عن جزيرة العنبر بحيث لو نسم الهواء لأمكنها أن تخرج فى البحر أو تأتى الى البر ثم اضطربت بعد ذلك أقوالهم وكثر قيلهم وقالهم كما هى عادة العامة فى كل أمه وكنت أنا وقبول سامعين وبقينا معهم حتى نظرنا النهار بالعين انما لشدة العتمة والضباب وكثرة ظلمة السحاب كان لا يمكننا أن نرى على البحر شيأ أبدا أو ننظر على البعد أحدا غير شئ على البعد ظهر قيل عنه انه جزيرة العنبر وان بينها وبين البر ربع فرسخ بالاكثر ولشدة انطباق الجو فى هذا النهار وما اعتراه من الاعتكار كان لا يرى الا رؤس الاحجار وبعض قمات الجبال الكبار مما تشقق عليها السحاب ويحيط بها كثيف الضباب فلما كانت الساعة الواحدة من النهار سمعنا دويا فى الانفجار وكانت تلك أصوات طرنبيتات العسكريه مع فريق من رجال الجهاديه قد أتوا مع الحاكم حاملين أسلحتهم آخذين أهبتهم وأمر أن يضربوا بنادقهم دفعة واحدة ولما ضربوها رأوا نارا فى البحر موقده وخرجت بعدها ضربات مدافع متعدده فعلمنا أن المركب بالقرب منا غير

بعيدة عنا ثم نظرنا من خلال الضباب مركبا يرفعها البحر الى السحاب ولفر بها سمعنا الملاحين مهللين وبذكر الله مكبرين باسطين اليه أكف الطلب متوسلين اليه بسيد العجم والعرب أن يزيل عنهم الكرب ويبعد عنهم الموت الذى اقترب ولما رآى من فى المركب أنه يمكننا تخليصهم من المضايق صاروا يضربون المدافع فى كل ثلاث دقايق فبادر الحاكم بايقاد نيران مشرقه على جهات متفرقه ليقوى الركاب ويشجعهم وفى حصول النجاة يطمعهم ثم طلب من الاهالى أخشابا ومأكولا وأحبالا وبراميلا فلموها من بعضهم لما وأعطوه منها شيأ جما وأمرهم أن يرموها فى البحر على عجل فألقوها وهم فى غاية الوجل وعند ذلك أقبل على الحاكم رجل مسن خبير بالعواصف متقن وقال له انا لم نزل نسمع فى الليل دويا فى الغابات ونحس بكافى ورق الشجر على عدد الاوقات ودام ذلك الى الصباح مع عدم وجود الرياح وان الطيور المائية قد هربت الى البر وهذا دليل على الهول الاكبر وعلامة على قدوم عاصفه ليس لها من دون الله كاشفه فقال الحاكم يا أولادى ها نحن قد استحضرنا لها وها هى السفينة ننتظر نزولها وحقيقة كان فى الجو ما يدل على ذلك لان وسط السحاب كان أسود حالك وكانت أطرافه متلونة بلون النحاس وأفواهه تكاد تنفجر من شدة الاحتباس وكان كثير من الطير يفر الى البر ليأوى من الخطر الى معاكف الشجر

ولما كانت الساعة الثانية من النهار سمعنا من جهة البحر صيحة عظيمة وقعقعة جسيمه كأنما نفخ فى الصور أو تزعزعت الجبال والصخور فصاحت الناس قائلة ها هى العاصفة مقبله ثم هبت الزعازع ففرقت ما كان فى الجو من الضباب وظهرت السفينة ومن عليها من الركاب وكانوا أنزلوا اشراعها وربوا لنسانها وربطوها من الامام بأربعة زناجير وعمنة كبيرة من جهة الفجير وكانت راسية بين جزيرة العنبر وبين رباط الرصيف المحيط بالبر ونفذت من محل لم

تسبقها اليه سفينه فبقيت فيه أسيرة رهينه تلقى الموج بصدرها فيرفعها حتى تظهر أخشاب قعرها وتغمس مؤخرها فى الماء حتى تغيب عن النظر ولم يبق له أثر وظل الريح والبحر يخفضانها و يرفعانها وعلى البر والحجر يدفعانها وهى لا تستطيع الى البحر رجوعا ولا الى البر طلوعا لانه كان بينها و بينه مهاو عميقه مفصولة عن بعضها باشعاب دقيقه وكانت تأتى الموجة من البحر تخور فى سيرها وتقتحم البر بنشرها فتعلو أكثر من خمسين قدما على الارض وتغمر الرصيف فى طوله والعرض واذا رجعت تكشف الارض كشفا وتنسف الاحجار نسفا وهى تفور وتمور وتعلو على الخلجان والثغور حتى ان الخليج الذى بين هذه الجزيرة وجزيرة العنبر صار لجة عظيمة من لجج البحر ثم يعلو زبدها على الاحجار فيبلغ ارتفاعه أكثر من ستة أمتار وكانت الرياح تختطف منها ما يمكن اختطافه وتقطف من الزبد ما يروج اقتطافه وتنشره أكثر من نصف ميل على البر فكان يظن أنها ثلوج خارجة من البحر وكان يظهر من علامة الجو أن العاصفة تمكث زمنا طويلا لانها كانت تزداد قليلا قليلا حتى كاد البحر أن يختلط بالسماء وأن يغمر الارض كلها بالماء وكانت الريح تخطف بعض السحاب فى الحال و يبقى البعض ثابتا كالجبال ومازالت السماء فى حجاب والارض والبحر فى غاية الانقلاب

أما السفينة فمن شدة ماقاسته من الويل مدة النهار ومدة الليل تقطعت زناجيرها ولم ترمن يجيرها وقلعت مراسيها ولم تجد من يواسيها فقذفت بها الامواج على الشعب فتكسرت وضجت عليها الناس وتحسرت فهم قبول برمى نفسه فى البحر فأمسكته من ذراعه وصممت على امتناعه وقلت له ياولدى اياك اياك أن تلقى بنفسك الى الهلاك فقال بلى ولكن لأنجيها أو أموت حبا فيها ولما رأيناه طاش وذهل وللنزول فى البحر تأهل ربطناه بحبل طويل وأمسكنا طرفه على بعد ميل فأقبل على السفينة بجسارة يعوم تارة و يمشى

تارة وكان يمكنه أن يقربها وأن يتسلق عليها ويركبها لان البحر عند نزوله كان يتركها واقفة على الارض الناشفه فيمكن للرجل أن يمشي حولها على أقدامه وأن يتمكن من مرامه لكن عند عودة الامواج وتعاليها كالابراج كانت تصدم مقدم السفينه فترفعه الى القرينه ثم ترمي بقبول رمية عنيفه فيخر معها كالجيفه ويأتي والدم يسيل من يديه ورجليه وتظهر علامة الموت عليه فيصبر حتى يفيق لنفسه ويتمكن من نفسه ويرجع ثانيا من سوء بخته الى خلاص أخته لكن السفينة من شدة ضرب البحر فيها وقدحها وعلى الاحجار طرحها فيئس من فيها من البحريه وألقوا بأنفسهم في البحر سويه وركب البعض على الصوارى واستعان البعض بالالواح والمدارى وهم وامن الهلاك هاربين والى النجاة طالبين ثم رأينا بعد ذلك شيأ تقشعر له الجلود ويذوب منه الحجر الجلمود وذلك ان ظهرت في مؤخر السفينة بنت مليحة الثياب فتية الشباب مادة يديها القبول وهو يسعى في نجاتها وكانت هي وردجنة بذاتها وكانت عرفت محبها الجرى وهو اليها يجرى فلما رأينا تلك البنت اللطيفه وهي معرضة للاخطار المخيفه ملئنا عليها رعبا وازددنا يأسا وكربا وأماهي فلم يرعها فزع وما أظهرت من هذا الخطب جزع بل صارت تشير لنا بالوداع الذي ليس بعده اجتماع وهي مع ذلك مطمئنه ضاحكة مستبشرة بالجنه ثم ظهر على ظهر السفينه رجل عريان ودنا من وردجنة وهو حيران وجثا على ركبتيه امامها وترجاها وهو راكع قدامها وأراد أن ينزع ما عليها من اللباس لينجيها من الغرق والبأس فدفعته عنها مع الانفه وصرفت وجهها عنه بغاية العفه فصاحت عليه الناس من كل مكان أن نجها نجها يا انسان وأقبل في الحال على المركب جبل من الماء مرتفع برأسه الى عنان السماء فلما نظره البحري مزبدا ونظر جداره اسود فرهاربا والى النجاة طالبا وبقيت وردجنة وحدها المسكينه ونظرت غرق السفينه واستعدت للقاء ربها وهي واضعة

يدها على قلبها كأنها الملك خرج من الماء وأراد أن يصعد الى السماء

شعر

فيالك يوما كثير الخطوب * فظيع الشروق شنيع الغروب
ويالك يا دهر فينا متى * نراك من البغى يوما تتوب

قال فلم تبق تلك الموجة للسفينة أثرا ولم تترك لوردجنة خبرا بل طفا ماؤها على البر راجفا وطرد كل من كان هنالك واقفا ولقد نجا البحرى الذى كان بقرب وردجنه وفاز من الله بهذه المنه فخر بعد خروجه ساجدا ورفع يديه متشهدا وقال يارب الارباب ويامعتق الرقاب لاأحصى ثناء عليك بما نجيتنى وأعتقت روحى وأحييتنى وكنت أرجح حياة هذه الشابة على حياتى وأود نجاتها ولو بوفاتى

وأما أنا ومرجان فاشتغلنا فى اخراج قبول اذ فرغ من وردجنة المأمول وكان الاشتغال بامره ألزم لانه كان أشرف على العدم وسال الدم من فمه ومن أذنيه حتى أن الحاكم أعطاه لطبيب وأوصاه عليه وشرعنا بعد ذلك البحث فى كل الجهات عن جثة ست البنات فوجدنا الريح حادت عن مهبها فخفنا أن لانعثر بها وأن تحرم جثتها من الدفن ولاتوارى فى التراب والكفن وغادرنا هذا المكان آسفين على تلك الصبيه أكثر من أسفنا على من هلك فى هذه البليه حتى لقد كدنا نسخط على القدر كما يحصل ذلك لبعض البشر عند الكدر وأما ما كان من أمر قبول فانهم حملوه الى بيت قريب على انهم ينقلونه بعد أن يطيب ثم رجعت مع مرجان لنسلى الست بدور فى مصيبتها ونعزيها على فقد ابنتها ولما حصلنا فوهة الوادى من نهر التنوير قابلنا كثيرا من العبيد عند الجون الكبير فأخبرونا أن البحر قذف هنالك قطعا من السفينه فنزلنا هنالك فرأينا جثة البنت المسكينه وكان الرمل قد غطى نصفها ولم يغير الموت وصفها وكانت عيناها مقفولتين وشفتاها مبتسمتين اذاتبدل وردخديها

باصفرار واعترى جبهتها بعض اقشعرار وكانت بالحالة التي رأيناها في السفينة عليها واضعة على قلبها احدى يديها ضامة ثيابها باليد اليسرى حافظة صورة قبول باليد الاخرى لانها كانت عاهدته أن لا تفرط فيها مادامت حيه ثم ماتت على هذا العهد والنيه فنزعنها من يدها مع غاية الصعوبة واندهشت من تلك الاعجوبه وأخذني من الدمع الاختناق وبكيت مع مزيد الاحتراق وأما مرجان فشق جيبه ولطم خده وصار يصرخ في الطريق وحده ثم حملناها الى بيت من بيوت الصيادين عند بعض نساء من المساكين وقلنا لهن أن يغسلنها من الرمل ونزلنا على بيت أمها في الحال فلما أن دخلنا وجدنا الستين جالستين وعلى الركب جاثيتين يدعوان الله بوقار وسكينه أن ينقذ هذه السفينه فوقع نظر الست بدور علي وأنا باكي العين ذاهل العقل من صرعة البين ففطنت لما وقع وذاب قلبها وانقطع وصاحت أين ابنتي أين عزيزتي أين قرة عيني وحبيبتي ثم خنقها البكاء فخفق دموعها وأباح زفرتها ولوعها وناحت أفصحوان على ابنها وهلت وبكت وولولت حتى وقعت مغشيا عليها فحضرنا كلنا بين يديها ولما أفاقت أعلمناها بحياة قبول وان الحاكم بعلاجه مشغول فردت روحها اليها وضمت الست بدور بين يديها وأخذت تسليها وهي عنها مشغوله مخمورة بالهم مقتوله وقضت ليلها في تلك الحالة المهوله حتى ثبت لدينا أن لا شيء من المامات يعدل ملمة الامهات وكانت كلما أفاقت واعتدل مزاجها وراقت نظرت الى السماء بعين انكسار وتفجرت من دموعها العيون والانهار ولم يجد تعبنا شيأ فيها حين كنا نسليها كأننا لم تسبق لنا صحبه ولم تعقد بيننا محبه بل لا زالت تئن أنين العليل وتشكو شكوى الذليل حتى طلع النهار ونزل الليل وانهار

ولما كان في الغد أحضروا قبولا وجاؤا به محمولا وكانت ردت روحه اليه الا الكلام فكان لا يقدر عليه وكنت أظن أن مجيئه يزيد الامهات حسره

ويقضى عليهن بالمره لكنه فرج عنهما وصرف بعض ما كان قائما بهما لانه مانزل على الارض الا وفعتا عليه ضما وأوسعتاه عناقا ولثما وسالت دموعهما وكان أجدها الهم وحقها الكرب والغم فبكى فبول معهما وتوجع بينهما وبعد أن خف مابهما من ألم الصدعه وتصرف بعض تأثير الفجعه نزل عليهما الخشوع والسكون وظهرت فى وجوههما علامة المنون ثم ما أشعر بعد ذلك الا وخبر من الحاكم جاءنى ورجل بتجهيز وردجنة أسرنى وقال لى انها حملت وان أهل الجزيرة لجنازتها كملت وانهم ذاهبون بها الى مسجد الابنوس فخرجت معه وأنا رثيث الملبوس ونزلت على مينا لوى فاذا عالم كثير وجم من السكان غفير قد حضروا الجنازة من كل فج عميق كأنهم فقدوا أكبر حبيب وأعز صديق وكانت كل السفن منكسة السيرانات مدلية البيارق والاشارات تضرب المدافع زمنا بعد زمن علامة على الحزن وأحاطت بالرجال العساكر كالزفاف حاملين بنادقهم بالخلاف ضاربين طرنبيطاتهم على طريقة المياتم لا على وجه المواكب والمواسم

شعر

وعلى وجوههم الكريمة غبرة * دلت على طول المآسف والحزن
وهم رجال الحرب لم يحزنهم * وقع السيوف ولا الاسنة فى البدن

قال وكانت ثمانية من أبكار الاكابر تحمل نعشها وترفع للسماء عرشها عليهن ثياب بيض بعاليل وفى أيديهن شئ من سعف النخيل وكان نعشها كفة من الانوار مكلله بالازهار أمامه فرقة من أبناء الكتاب يقرؤن الكتاب وقد حضر المشهد أمراء الناحيه ثم بعد ذلك الحاكم والحاشيه

هذا ما رسم به الديوان لتشييع وردجنه وتوصيلها الى القبر الذى هو أول درجات الجنه وبعد أن وصلوا بها الى سفح الجبل والناس تحمل نعشها بالقبل مروا على المنازل التى طالما أنستها فى حياتها وملأتها وحشة بعد مماتها ثم

انفض عقد الموكب ووضع النعش على الارض كالكوكب فصرت لا تسمع الاعويلا وتكبيرا وتهليلا ونساء يأتين من كل مكان وبنات حسان وغير حسان يترامين على النعش باطراف الملبوسات ويتبركن به تبركهن بالبرازخ والمقامات ويتضرعن الى الله ببركتها ويتقربن اليه بواسطتها فتقول المرأة رب ارزقني بنتا في وصفها ويتمنى الصبي عرسا في ظرفها ولطفها ويرجو الفقير حبيبا في صدقها وأمانتها وتقول العبيد اللهم اجعل موالينا في رأفتها وحنانتها

ولما وصلت بجلالة قدرها الى قبرها أقبل كثير من سكان مداغشقر وعبيد موزنبيق والكفر ووضعوا حولها فواكها ونشروا انفيس الاقمشة على الاشجار المحيطة بها جريا على عاداتهم واتباعا لاصطلاحاتهم وجاء كثير من الهند وسواحل ملابار بأقفاص من مليح الاطيار فوضعوها بقربها واعتقوا ما بها من الطير في حبها

شعر

وهكذا الطيب ان ذاق العدم * تبكي على فراقه كل الامم
جزاؤه على جميل صبره * أن تجمع الاكوان عند قبره

وقد اقتضى الحال أن يحيطوها بالعفر لمنع كثير من البنات أن تنزل معها في القبر فكم بكين فقدها وقلن مع الحرقة لها

شعر

تعالى بالله ياحبيبه * نفديك من هذه المصيبه
فكيف هذا البعاد عنا * وأنت ما بيننا قريبه
قومي من النعش كلمينا * فانت ان تنطق لبيبه
تعبك قد قضي ولكن * لم يقض منا فتي نحيبه
ياورد جناتنا جميعا * موتك والله ذا عجيبه
أمس قرأنا كتاب بشر * أملته ألفاظك الغريبه

وجاء يجرى قبول فينا * يشعل من شوقه لهيبه
وفض ختم الكتاب ليلا * فلم نجد فى الكتاب ريبه
واستبشر الكل ثم بتنا * نذكر حسن اللقا وطيبه
وبات فى الانس والهدا * يقسم كل منا نصيبه
واليوم قدجاءنا غراب * يقطر منقاره نعيبه
فالدهر فى نفسه معاب * وليس يحتاج أن نعيبه

وكان دفنها فى قرب مسجد الزعفران تحت ظل الخيزران فى مكان كانت تحبه فى حال حياتها وتريد أن تستريح فيه وهى عائدة من زياراتها

ولما رجع الحاكم من المشهد أتى هنا وو راءه الحشد وأخذ يعزى الست بدور فى مصابها ويعدها بالدراهم التى أمكنه بجودها وسخط كل السخط على خالتها التى هى السبب فى مصيبتها ثم دعا من قبول وشرع يسليه ببعض الاقوال وقال له انى كنت قصدت بسفرها أن يعتدل الحال وبذلك يعلم الله وتشهد ملائكته وأنبياه فسافر ياولدى للجزائر فانى موجد لك خدمه وعلى أن أقوم بشأن أمك فى الامور المهمة ومد يده اليه ليصافحه ويستعطفه ويسامحه فقذف بها قبول عن وراه وصرف نظره عنه كيلا يراه

وأما أنا فجعلت مقامى عندهم وأقمت أياما بينهم لاسليهم وأسلى قبول بقدر مايمكننى أن أقول فلما مضى لذلك ثلاثة أسابيع صار قبول على المشى يستطيع لكنه كلما زادت قوته زادت همومه وشقوته حتى أصبح عديم الاحساس سليب القرار والاستئناس اذا سئل لا يرد جوابا وان تكلم لا يحسن خطابا وكانت الست بدور كلما رأته تقول ياولدى ما رأيتك الا وتصورت وردجنة فينشق كبدى فيقشعر عند ذكر اسمها وينفر كما تنفر المها ولا يصغى لقول أمه وهى تناديه وتدعوه لما كان فيه بل ويفر من كل مكان ولا يأوى الا الى البستان فيظل متفكرا فى وردجنة جالسا تحت شجرتها شاخصا الى فسقيتها

وقد أوصى الحكيم الذى اهتم بمعالجته أن لا يتعرض له أحد فى ارادته وقال لا ينقذه من داء الماليخوليا الذى اعتراه الا أن يترك على هواه

ولقد اتبعت نصيحة الحكيم وعرفت أن ذوقه سليم فلما أحس قبول رجوع قوته وكمال عافيته فر من البيت فرار الآبق وكنت أنظره على البعد نظر الوامق فقلت لمرجان أن يحضر شيأ من المأكول وأن يتبعني وقبول فرأيته نزل من الجبل واشتد جسمه وعليه السرور ودخل ثم انحدر الى طريق المسجد جهة الخيزران والتفت وراءه فلم ير انسان فوقف غير بعيد من قطعة أرض ترابها جديد وتوضأ من العين وصلى هناك ركعتين ثم دعا ربه وأطال الدعاء وجثا على ركبتيه خشوعا وتضرعا فاطمأن قلبي لما رأيته على تلك الحاله وقلت ان التطوع من العقل لا محاله وانه رد اد راكه اليه منذ ظهرت علامات الصلاح عليه فخلعنا أنا ومرجان نعلنا وتوضيت ثم نوينا هناك وصلينا وبعد ذلك أخذ يسير الى شمال الجزيره وهو فى هدء من الحيره ولم يلتفت مع ذلك الينا ولا ألقى بصره علينا وكنت أعلم أنه لا يدرى أين دفنت وردجنة وتوارت وهل طامت من البحر أو غارت فسألته لاى شئ صليت تحت عيدان الخيزران فقال لأننا كنا نجتمع كثيرا فى هذا المكان ثم استمر فى طريقه مع القوة والصلابة الى أن وصل الى باب الغابه وهنالك جن علينا الليل وعدمنا القوى والحيل فأكلت أمامه ليأكل مثلى فأكل ونمت تحت شجرة فكذلك فعل ولما أصبح اليوم ظننت أنه يرجع لكنه بقى جهة الخيزران متطلع ثم مشى قليلا كأنه يريد الرجوع لكنه توغل فى الغابة مع الهلوع فعرفت قصده ولم أقدر أن أزحزحه عنه ولا أبعده منه حتى وصل وقت الظهر الى أرض الذهب فقصد البحر وذهب متجها الى المكان الذى غرقت فيه السفينه من تلك المينا فرأى البحر أسكن من مرآة فصاح آه آه واعتزيناه واوردجنتاه ثم وقع مغشيا عليه فتقدمنا اليه وحملناه الى الغابة الى أن أفاق ووجد

صوابه ولما أفاق أراد الرجوع الى شاطئ البحر فمنعناه وتداخلنا عليه ورجوناه فرجع عن مشروعه الاول وبدل ما كان عليه وتحول ومازال يدور مع الهيام مدة ثمانية أيام حتى طاف بالمحلات التي كان فيها مع ربيبته ومر بالمخادع التي رأى فيها وجه حبيبته وما جلس الامن فرط تعبه وشدة ما اعتراه من ظمئه وسغبه وكلما نظر شيأ من تلك المحال التي كانت تذكره بما جرى معها من الاحوال كالملعب والاكل سوية وكالنهر الاسود الذي مر عليه في البرية والقطع التي كانت ترقص معه في أيام صفاه والبقع التي كانت تغني فيها على قيد الحياة أسبل دموعه وأضرم ولوعه وصاح آه آه واوردجنناه واعز بزناه ومازال على هذه الحالة الموحشه والاضطرابات المدهشه حتى غورت عيناه وتذبلت وجنتاه وأخذت صحته في الاضمحلال وعفار ونقه وزال فلما رأيت ان الافكار فيها اتلاف وانه يلزمه البعد عنها والاعتكاف بدالى أن أنقله في قطعة من الجزيرة تكون له مسليه مبعدة للهم منسيه ونزلت به أرضا في الجزيرة لم يكن يأتيها وطول عمره ما خطر فيها وكانت بها حركة الزراعة جسيمه وثروة التجارة عظيمه فمن تجار ينشرون أخشابا وفلاحين يحملون حصائد وأعشابا وعربات ذاهبة وأخرى على الطريق آيبه ومراع للانعام ومراح للاغنام وسكان في الخلاء منتشرة هنا خمسة وهناك عشره ولعلو الارض كانت الزراعة ممكنة للامم المتمدنه فكم من حصائد في الخلوات وأشجار في الغابات وورود يانعة وأزهار طالعة ولكثرة الزرع طرى الهوى وطابت للناس البيض هناك المأوى فظننت أن قبول اذا أقام بهذه المحلات ينسى ذكر مافات اذ البحر من هناك لا ينظر والمينا والاماكن التي حولها لاتظهر وان الجبال الممتدة من طرف مينالوى لايظهر منها من جهة الصحراء شئ الابعض رؤس شاهقة وصخرات متفرقه وكان مجيئي بقبول في هذه المواقع ومؤانستي اياه في تلك المنازل والمطالع قصدا بان أشتت أفكاره وأزيل

تولعه وتذكاره وأن يترك مافى باله ويبعد ذكر وردجنة عن بلباله لكن العاشق يرى أثر معشوقه فى سائر المخلوقات ولا يزال يذكره على عدد الاوقات

شعر

تراه ان غاب عنى كل جارحة * فى كل معنى لطيف رائق بهج
فى نغمة العود والناى الرخيم اذا * تألفا بين ألحان من الهزج

فكان لا يفتر عن وردها ولا يرى جنة الا فى وردها كحجر المغناطيس اذا مس الابرة علقها وأين رآها عانقها وهى تدور معه حيث دار وتسير كيف ماسار فقلت له ونحن فى صحارى ولبان الى أين نتوجه الآن فالتفت جهة الشمال وقال هاهى جبال الناوالمروج التى عليها فهل لك أن ترجع بنا اليها قال فرأيت ان مافعلته لم يجد فيه نفعا ولم يعمل لديه خفضا ولا رفعا فلم يبق على الأن أحكى معه فى عشقه وأن آتيه من باب شوقه فاستعملت ماقدرت عليه من البرهان القاطع واتخذت له الدليل الساطع وقلت له نعم هذه هى الجبال التى كانت وردجنة تسكنها وتلك هى المحال التى كانت تستحسنها وهاك الصورة التى كنت أعطيتها لها برمتها فانى وجدتها على رمتها فانسيتك فى حياتها ولا بعد مماتها فلما نظر هذه الصورة مد يده اليها وألقى بنفسه عليها وضمها الى قلبه وفمه مظهرا بعض ما أسفر من تبسمه ثم حن واشتكى واختنق بالبكى فقلت له ياولدى اسمع لما أقول ولو كان عن فضول فانى محبكا وطالما كنت معينا لكما وأنا الذى فطنتك وهذبتك وعلمتك وأدبتك وعودتك المصائب ومرنتك على حمل النوائب فعلى م هذا الاكتئاب وطول الانتحاب أتبكى على نفسك أم تبكى على فقد عرسك فان كان بكاؤك على مصيبتك فهى نازلة عظيمه وملمة أليمه لانك فقدت أحسن البنات خلقا وخلقا وأجملهن فعلا ونطقا لقد كانت والله تفضلك على نفسها وترفع مقامك فوق رأسها وتؤثرك على ثروتها وما كانت ترجوه من خالتها وتعتقد أنك

من أكفائها بل من مواليها وأوليائها لكن ما أدراك أن ما كنت تطمع فيه من السعادة لديها ربما كان وخيم العواقب عليك وعليها فانها كانت فقيرة مجردة مخرجة من ارث خالها مبعدة ولم يكن لها شئ تعيش منه الا كدك وعرق جبينك وجهدك ولا يخفاك انها تربت فى الرفاهيه واعتادت على المعيشة الواهية فلا شك أنها على حرارة طبعها وشدة حبها فيك وتولعها كانت اذا رأتك فى كد تساعدك فى الاشغال وتعقت نفسها فى الاعمال فان رزقت منها بذريه فقد تمت الرزيه اذ كان لا يمكنها أن تخدم أولادها وتخدم أمك وأمها فان قلت ان الحاكم كان يساعدكما و يشيء بعدكما قلت وما أدراك انه كان ينتقل الى بلده و يأتيك رجل لئيم من بعده وربما احتاجت زوجتك الى رجائه فيستميلها بمكره ودهائه فان مالت اليه ملتك وان عزت نفسها عنه أذلتك فان قلت

شعرا

كفانى من الدنيا حبيب وانى * لا كفله رغم النوى والنوازل
فأشكوله طورا و يشكو الذى يرى * وان كلانا بالاذى غير هازل

قلت صدقت لكنها ماتت وانقضت أيامها وفاتت ولم يبق لك بعدها الا أمك وأمها ولقد كانتا عزيزتين عندها وانك بغمك هذا تقودهما الى القبر فاصبر فلا حيلة الا فى الصبر واصرف حياتك فى خدمتهما كما صرفت وردجنة حياتها فى مساعدتهما فان احياء المروءة هو عين السعادة وأعلا منازل الخير وزياده وان متاع الدنيا محصور فى اللهو والغنا والتفاخر الذى عاقبته الفنا وأنت تعلم أن خطوة لطالب الغنا واحده قد أوقعتنا فى حضيض ما أبعده وانى وان كنت لم أرض لها بذلك فى أوائل الامر ولم أعنها على السفر الا انه ربما كانت عاقبته اصلاح الشأنك وشأنها سيما وان خالتها كانت طلبتها فى أواخر سنها وان الحاكم قد ألح فى ذلك وأطنب وما من أحد الا رأيه استصوب مع أن ذلك كان تهيئة لاسباب البلية فهذه لا شك حكمة الهيه والكائن لابد منه والمقدور لا مفر

منه وقد قيل
شعر

اذا كان عون الله للعبد مسعفا * يهون له من كل شئ مراده
وان لم يكن عون من الله للفتى * فأول ما يجنى عليه اجتهاده

هذا وان كان الاوفق عدم مطاوعة أمرهم والحذر من خداعهم ومكرهم الا أن العالم على اختلاف بضائعهم وتفرق حرفهم وصنائعهم لابد لكل أن يفقد أعز ما عنده سواء كان حبيبه أو قريبه أو ولده وأغلبهم بعد الفقد يقول ياليت ما كنت فعلت وياليت ما قصرت فيه وما أهملت وماعلموا قول لبيد وشعره المفيد

ألا كل شئ ما خلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل
وكل ابن أنثى لو تطاول عمره * الى الغاية القصوى وللموت آيل
وكل أناس سوف تظهر بينهم * دويهية تصفر منها الانامل

وأما أنت فلو اختبرت سريرتك وقرأت سيرتك لما رأيت فيك عيبا يلام ولو جدت عندك أخلاق الشيخ على سن الغلام وكم لك على وردجنة حقوق بينه لاتحتاج الى برهان ولا بينه فوتها الابخل فيك ولا تبذير ولا الشح ولا تقتير ولم يكن لك فيه جنيه اذ جعله الله على يد خالتها الشقيه فتبارك من اله صورك وأنشاك وحلاك بمعرفته ووشاك بحكمه البالغه ونعمه السابغه تأبى أن تندم على فقدها أو تعترض على ماقسم الحظ لها فانه قدر عليها ذلك من يوم ولدت بل من ساعة ماتصورت فى رحم أمها ووجدت وان العيش صرح والموت له شرافه والمنون كأس والناس له رشافه يدور على القبيح كما يدور على المليح ويفتك بالمملوك والمالك ويبطش بالملوك والممالك

شعر

وما الدهر الأمجنونا باهله * وماصاحب الحاجات الامعذبا

فاحمد الله على انها ماتت قبلك وقبل أمها أعنى انها لم تمت مرتين ولم تكو

بجمرتين فانها ان كانت ماتت بعدكما فلاشك انها كانت تبكيكما وكانت هذه لها الموتة الاولى وموتها تكون الموتة الاخرى على ان الموت للحياة كالليل لليوم العبوس فمن نام به فقد ارتاح من البؤوس وانك اذا وقفت على حقائق الاغنياء ومعايش الامراء والادعياء وجدتهم فى الحقيقة لا يملكون غير صفقة مغبون فان لهم على ظهورهم مصائب باطنيه وفى نظير ماعندهم من الثروة آفات صحيه وان أحبابهم أحباب أموالهم وطلابهم على قدر نوالهم فاذا انقضى عيشهم الذى صرف على منافع غيرهم وعاقهم الموت عن سيرهم لم يحضرهم غير قريب ملتمس أو منافق مختلس وأما وردجنة فانها عاشت سعيده وماتت شهيده وانها تمتعت بيننا بتلك الخيرات الطبيعية وماتت محافظة على السعادة الابديه لانها لما نظرت الى القوم وهم متلهفون عليها ورأتك وأنت ساع بالجسارة اليها ثبت عندها انها كانت محببة للعموم وأن الشعب عليها مهموم مغموم فأطلعها الله على براءة ساحتها واخلاص ذمتها فاستحقت أن يمن عليها بالجزاء الاوفى وأن يحشرها مع عباده الذين اصطفى فألهمها الصبر عند الحمام حتى انها قابلت الموت بابتسام

واعلم ياولدى أن الله مبتل لاحبابه معجل بالموت لاخلائه لعلمه تعالى أن ليس يقدر على حمل ذلك سواهم وانه مثيبهم فى الآخرة ومجزل عطاهم فمن أراد به الخير اصطفاه وعجل له بالوفاه ليكون لغيره فى التجلد قدوه ولمن أراد أن يتأسى أحسن اسوه ثم يعجل له فى الدنيا جزاءه بان من تفكر فيه بعد موته بكاه ثم يخلد ذكره بين الامم الآتيه والدرارى التاليه حتى تنقرض الملوك وذكره لم يزل وتفنى الدنيا وهو باق الى الازل

وان وردجنة فى حيز الوجود لا العدم وانما نقلت من عالم الى عالم وأخرجت من دار الفناء والشقاء الى دار النعيم والبقاء فان من خلقها من أديم قادر على أن يحيي العظام وهى رميم فسبحانه دلت مخلوقاته على وجوده وشهدت

خيراته بمنه وجوده فمن أنكره فقد كفر وضل فى واد أقفر وحاشا أن يترك وردجنه وأن لا يجعل أقل ثوابها الجنه أجل انه خالقها وحسن خلقها وخلقها وكان يقدر على نجاتها من الغرق وحفظها من الحرق والشرق الا انه تعالى اختارها لنفسه فقربها من حضرة قدسه وانا لو أمكننا ونحن فى عالم الذر أن نقف على الخبر ونعلم كيف خلقنا وبأى وجه قدر أرزاقنا أواننا من يوم أخرجنا من العدم الى هذا الوجود الاصم أردنا الوقوف بعد الموت على قرار أيما الى جنة أيما الى نار لما اهتدينا للمراد ولا علمنا ما الله بنا أراد لكن أقوال الدهريين فى ذلك محض أقاويل ومجرد أباطيل ومن زعم انها أرحام تدفع وأرض تبلع فقد طغى وبغى وأشعل فى الزندقة نار الوغى فان ايجاده تعالى لنا منزه عن الاضطرار وحاشا أن يعدمنا بوجه الاحتقار وأن يكون وجودنا فى الارض لمجرد هوى نفسانى أو رأى انسانى فانه ليس فى البحر من قطرة الا وفيها أشباح وحيوانات ذوات أرواح وكلها لنا مدخره ولمنافعنا مسخره وان ما فى الكواكب من أنوار وحركات وأدوار ماخلق الا لمنافعنا من متاجرنا ومزارعنا وجميع الخيرات الالهيه وما برته القدرة الازليه فهو لخدمتنا مسخر ولولانا لما تقدم ولا تأخر لكنا مع هذا شم الانوف أقوياء الكفوف لولا أن سلط الله علينا الضعف وحكم علينا بالحتف لطغينا فوق الارض وما اندفع البعض منا عن البعض

شعر

وهذه حكمة مولا حكيم * وجل تقدير عزيز عليم
سل من الموت لنا صارما * فأصبحت أيامنا كالصريم
ثم ابتلى الصالح من بيننا * بمقت عيش وعذاب أليم
واختاره لاشك من بعد ذا * لنعم دار ونعيم مقيم

فوردجنة اذا فى دار السعاده ومنازل بها الحسنى وزياده لو أذن لها

بالخروج من مقام الاملاك ورخص لها فى أن تراك لكانت بلاشك تناجيك وتودعك وهى تناديك وتقول لك يافبول ان الحياة الدنيا دار بلاء ومحل اختبار وابتلاء وانى أحسنت وفاء العهد وأخلصت فى الموده وجبت البحار رضاء لخاطر أهلى ومارضيت بالغنى حفظا لعهدى معك وقولى فهانت على الوفاه وتخلصت من قيد تلك الحياه وألفيت نفسى غير آثمه ومنيت بحسن الخاتمه وقد أراحنى الله على الدوام من تصرف الدهر وتقلب الايام وماعاد الفقر ولا النعمة يقتفيانى ولاأرى هول البحر ولاهول البحر يرانى وحالى لايرثى اليه فلاتأسف يافبول عليه فانى صرت خالصة صافية مغمورة فى العفو والعافية لايغيرنى مغير ولايكدرنى مكدر كالنور الانور والسماء الاقمر فلاتدعنى للرجوع الى ظلمة الحياه فانى فى حال كل من علمها يتمناه أتذكر يافبول تلك الايام الخاليه والاوقات الحاليه حيث كنا نقوم سويه فى اويقات الصبح الهنيه فنذوق لذة شروق الشمس على رؤس الجبال وانتشار أشعتها على الغابات والرمال أما كان يقوم بنا من ذلك هيام لا يكيف وطرب لايحد ولايوصف وكنا من كثرة لهفنا وشدة شغفنا نود لو اننا عيون مبصره لنتمتع بانوار الفجر وهى مسفره أوانا انوف ومناخر لنحظى بشم روائح النبت الفاخر أو كنا مسامع متعدده لنفوز باستماع الطيور المغرده أو كنا قلوب عامره لنقوم لله بشكر خيراته الوافره فهاروحى الآن على منبع نهر المحاسن الذى منه تستمد الارض ومافيها من المساكن تذوق وتسمع وتمس مباشره ماليس للارض وماعليها أن تصل اليه الا بحواس غير قادره وأنى للقلب واللسان أن يقدرا على وصف هذه الجنان أو يفصحا عما خلقه الله لتعلة الصابرين وأعده لتهنئة كثير من عباده الصالحين عما أراه كل لحة يجلى على ويزاد بهجة بين يدى فتجلد يافبول لمانابك واصبر يا أخى على ماأصابك لتفوز هناك بقربى أو تتمتع على الدوام بحبى فتم أرضى عنك

وأ قرب منك وأطفئ ولوعك وأمسح لك دموعك فصب نفسك لنفسي
بم ن عليك ألم ساعه وتحظى بوصلي الى أن تقوم الساعه
قال وكانت نهاية قولي ان أخذتني حدة الكلام وأدركتني شدة الطرب
والهيام فانزهل عقلي وبهت وأمسك لساني فسكت وأما قبول فانه أحدق
الي بعينيه وصاح وهو يضرب بيديه ويقول

شعرا

نفسي فدتي من حقا * أي والله فدتي حقا

ثم انه أغمض عينيه وسقط على الارض مغشيا عليه ولما أن أفاق قال حيث
أن وردجنه هي الآن في الجنه وأن الموت هو الموصل اليها فلابد أن أموت
من الاسف عليها وكأن أقوالي التي ذكرتها وبراهيني التي أوردتها لم تنزل
عنده بمكان ولم يتأثر منها بأي شيء كان وبقي حتى استولى عليه الحزن
وتسلطن الداء على البدن ولم يكن رأى مصيبة قبل اليوم كانت تنفعه وتزيل
ماحدث به وتدفعه الا انه سلب القرار وعدم الاصطبار فيئست من حالته
وذهبت به الى أمه وخالته

ولما دخلت به وجدت أمه وأم حبيبته قد أودى بهما الهزال واضمحلا
من الغم كل الاضمحلال فعلمت أن من كان في طبعه حده لا يقدر على
أن يحمل الشده

ثم قالت لي أمه انها رأت وردجنة في المنام وانها في غاية من الترفه والانتظام
وحولها الندوالبان والآس والريحان وذكرت لها انها في خيرات يرحل
اليها ولذات يحسد المره عليها ثم دنت من قبول بابتسام وأخذته معها من
غير كلام قالت فأردت أن أنزعه من يدها فارتفعت من الارض ولحقت بها
وتبعتها وأنا فرحه مبتهجة منشرحه فأردت أن أودع أمها فرأيتها على أثري
مقبله ورأيت وراءها مرجان مهرولا ومريم مهروله وأعجب من هذه

الامور أن هذا المنام رأته بعينه الست بدور فقلت لها خيرا ان شاء الله ولا يحصل فى الكون شئ الا باذن الله ولما توجهت عند الست بدور قصت على منامامثله كانت رأته مع افحوان فى ليلته فدهشت من توافق تلك الاحكام وأدعنت بتجردها عن فاسد الاوهام هذا والرأى عندى فى الحقيقه انى أعتقد فى المنام واثبت تصديقه وقد أجمع سكان الارض على ان الحق يرى فى المنام وأكبر الفلاسفة ومشاهير الرجال كانوا يعتقدون فى الاحلام كالاسكندر وقيصر وفلاسفة اليونان وغيرهم من ملوك الرومان ولا شك أن عقول هؤلاء كانت عظيمه وان أذواقهم كانت سليمه ولقد شهدت الكتب السماويه بصحتها وصدقت بكلمتها وأما أنا فلا حاجة لى لذكر دليل غير ما جربت فكم رؤيا رأيت وعنها أعربت فعلمت بوقوعها أنها وحى للصالحين من رب العالمين فمن أراد أن ينقض ذلك بدليله فقد سعى فى تضليله واستطال عليه البيان وأغلق دونه باب الامكان لانا نقول ان الرجل ان كان بعيدا عن دار أبيه أوافترق عن أخيه يمكنه أن يطمئن خاطره بالمراسله أو يكاتبه فى أمر عن له فليس من العجيب على صاحب القدرة والارادة أن يراسل بالاحلام عباده وهو لا شك منزه عن اتخاذ آلة محسوسة ينفذ بها اراداته فلا غرو أن كانت الرؤيا من بعض الآنه هذا ولاى شئ نشك فى الاحلام مع ان الدنيا ليست الا كمنام لانها فانية والحلم فانى وأمورها واهية والمنام واهى وعلى كل فقد تحقق منام المرأتين ووقع مثل رؤيا العين اذ مات قبول بشهر بعد ورد جنة وجمعه الله بها فى الجنه وكان رحمه الله لا يزال يهتف بذكرها حتى دفنوه جنب قبرها ثم ماتت أقحوان بعدا بنها بثمانية أيام وقابلت الموت بسلام وقالت وهى تودع الست بدور كلاما تلين له الصخور وتنشق له الافئدة والصدور

شعر

فى جنة الخلد يكون الملتقى * فانها دار النعيم والبقا

والموت لاشك أعز منة * يطلبها عبد لمولاه اتقا
والعيش ان كان قصاصا يشتهى * آخره لكل من تحققا
وان يكن محض ابتلاف كلنا * نطلبه عيشا قصيرا ضيقا

ولما انقطع حبل العائلتين وتصرم قام الحاكم بأمور مرجان ومريم فانهما صارا عديمى المنفعة بعد ان كانا فى الخدمة كاربعه ولم يعيشا زمنا طويلا بلا بعد أسيادهما ومات الكلب جوعا من بعدهما فأخذت الست بدور فى منزلى وهى من الصبر فى مكان على وكانت فى أوائل المصيبة شديدة الاصطبار شريفة النفس عالية المقدار وطالما سلت قبول وجلدته وقوته بالقول وأيدته وعللت أمه أقحوان الى أن مات الاثنان ولم تعش بعدهم الاشهرا ثم ماتت غما وقهرا

وأما خالتها فانها وقعت بعدها فى شرك الندم وتكبلت فى قيود السدم على ما فعلت معها ومع ابنتها من الامتهان وارتكبت فيها أمورا تخل بشرف الانسان فعجل الله لها فى الدنيا بالعقاب وختم لها بالسوء والعذاب

وجعل قبر قبول مجاورا لقبر وردجنه وقبور أمهما وخادمهما حولهما وما وضعت عليهم برازخ من رخام ولا نقشت عليهم كلمات تليق بأخلاقهم الكرام ومع ذلك فلا زال ذكرهم فى قلوب من أحسنوا اليهم مخلدا واسمهم فى معالم الجزيرة محفوظا مقيدا كان أرواحهم التى تحلت بالزهد فى الدنيا لا تميل الى زخارف الاخرى وانه لو أمكنهم أن يسعوا فى الارض بعد موتهم أو رخص لهم أن يرجعوا الى بيتهم لما تخيروا الا منازل الفقراء والمساكين وانتخبوا معا كف المنقطعين ليسعوا فى تسلية من اساءه الزمان وتقوية من عشق من الشبان وترغيب الناس فى الخيرات الطبيعية والمحصولات الصناعيه وتنفير النساء والرجال من الانهماك فى طلب الاموال

فيا معشر الشبان المتحابين وأهل الفتوة المؤتلفين ويا أيها الامهات المساكين

ويا افرادهاتين العائلتين أجمعين ان هـذه الاشجار التي كانت تظلكم وتلك العيون التي كانت تجرى لكم والمعاكف التي كنتم عاكفين عليها والمخادع التي كنتم ترتاحون اليها أصبحت على فقدكم باكيه وأمست بعدكم موحشة خاليه فلا يستطيع أحد بعدكم أن يفلح أرضكم ويسكن بيتكم حتى ان معزكم نفرت وطيوركم فرت وبساتينكم أقفرت وها أنا بعدكم ندفقدانداده وأب عدم أولاده وسائح في الارض الى الابد لم يجتمع بعدكم فيها على أحد

ولما أن ختم الشيخ بذلك القول قصته قام وأخذ هراونه واستند عليها واتكى وتركني وبكى وغادرني ودموعي تسيل وكم بكيت وهو يلقي على هذا الحديث الجميل

قدتم هذا الكتاب طبعا * وراق حسنا ورق طبعا
ومنه قد أزهرت رياض * شدا عليها الحمام سجعا